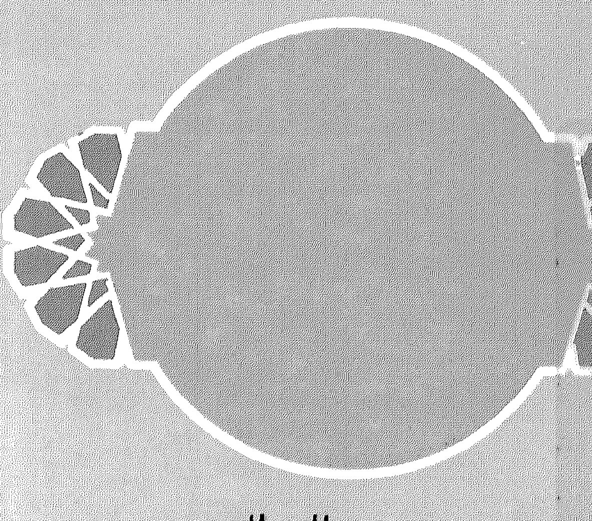
الدكتور عدنان محمد زرزور
الأستاذ بجامعة قطر

القوميَّة والعِلمانيَّة

مَدخل عِلمي





مؤسسة الرسالة

القوميّة والعلمانيّة

مدخل علمي

الدكتور عدنان محمد زرزور
الأستاذ بجامعة قطر

مؤسسة الرسالة

٢٠١ر٦

ع.ن عدنان محمد زرزور

القومية والعلمانية مدخل علمي/ عدنان محمد زرزور. ـ عمّان: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢.

(١٨٤)ص

ر. أ(١٩٩٢/٨/٥٢١)

١ـ العلمانية ٢ـ القومية أ ـ العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وبيان

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى جميع إخوانه الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

- ١ -

فهذه دراسة تعريفية موجزة، قد يفتقر بعض جوانبها إلى البسط والشرح وذكر الأمثلة والشواهد، ولكنها لا تفتقر، فيما أقدّر، إلى الدقة والموضوعية، وإلى غلبة الروح «الأكاديمية» بوجه عام.

والذي يشفع في وضعها بين أيدي القراء أنها كتبت من موقع المصارحة، ومن خلال الرغبة الجادّة والصادقة في دعوة أصحاب الفكر القومي في البلاد العربية إلى تأكيد التزامهم بالمضمون الإسلامي للشخصية العربية، أو ممارسة حقهم ـ على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ـ في العودة إلى هذا المضمون بعد سقوط الاشتراكية، وترنّح العلمانية.. وبعد فشل جميع محاولات التغريب والتغرّب التي تجاوزت الإسلام، والتي تمت كما هو معلوم تحت شعار التحديث والمعاصرة، ومحاولة اللحاق بركب الأمم المتحضّرة أو المتقدمة (في الشرق والغرب)! ولهذا فإن النقاط الجديرة بالوقوف أمامها في هذه الدراسة ـ بوجه خاص ـ

تلك التي تحدثت عن تجاوزات الفكر القومي، والتي تناولت آثار الدعوة إلى العلمانية في البلاد العربية والإسلامية.. تعبيراً عن وجهة نظرنا ـ التي نرجو أن تكون إسهاماً في بلورة وجهة النظر الإسلامية ـ في المسائل التي نقدّر أن على دعاة القومية أن يعيدوا فيها النظر. خصوصاً إذا ذكرنا أن الدعوة إلى العلمانية مشت غالباً في ركاب الفكر القومي، وأن القوميين طالما ربطوا بينها وبين التقدمية في العالم العربي، كما أوضحنا في هذا البحث.

وربما كان طرف من أهمية هذه الدراسة يعود إلى بروز الدولة القومية ـ والروابط القومية ـ مرة أخرى بعد انهيار الامبراطورية الروسية، وتفكك بعض «دول» أوروبة الشرقية. كما برزت مثل هذه الدولة والروابط، في حوض البلقان وفي البلاد العربية، بعد انهيار الدولة العثمانية. وإن كان من الجدير بالاعتبار بهذه المناسبة أن الإمبراطورية العثمانية عاشت ستة قرون، في حين أن الاتحاد السوفييتي ـ أو الإمبراطورية الروسية كما كنّا ندعوها منذ سنوات طوال ـ لم يصمد أكثر من أربع وسبعين سنة، على الرغم من القوة النووية الرادعة وبسط النفوذ الهائل! وفي حين أن الدولة العثمانية ضعفت تدريجياً، وانهارت خلال عقود من الزمان؛ فإن سقوط الاتحاد السوفييتي كان سريعاً ومروّعاً.. ويكاد يكون مسرحياً!! بالإضافة إلى أن العوامل الخارجية لعبت دوراً حاسماً في سقوط الدولة العثمانية (تكالب الدول الأوروبية على الرجل المريض) أكثر مما لعبته في سقوط الاتحاد السوفييتي عشرات المرات! وربما

كان هذا السقوط الذي تم على أيدي «الأتباع» الذين بلغوا مرتبة القيادة والزعامة، وأعني أتباع المذهب الشيوعي الذي قامت عليه الإمبراطورية، غير مسبوق!

ويصادف بروز الدولة القومية الجديد، أو بعد هذا السقوط الروسي والاشتراكي: فشل الدولة القومية، وضعف الحركة القومية الذي بلغ حد الانحسار في البلاد العربية. وقد تحتاج هذه الظاهرة إلى دراسة وتعليل، وإن كنا نعتقد أن هذا البحث ينطوي على طرفٍ هام من هذه الدراسة. وفي جميع الأحوال فإن مسألة الهوية، من وطنية وإثنية (سلالية) ودينية ومذهبية، أعمق وأرسخ من أن تعالج، أو تستوعب من خلال شكل الدولة أو بنائها الدستوري، أياً كانت درجته من السعة والمرونة، وحتى لو وصل إلى حد اللامركزية السياسية والتعددية الثقافية! فضلاً عن فشل دولة البروليتاريا، أو دولة الحزب، بكل دعاواها البائدة والمعهودة في الصهر القومي والديني.

- ٢ -

يُضاف إلى ذلك أن صعود المد الإسلامي، فيما يعرف الآن بالصحوة الإسلامية، قد يحمل العالم الغربي على إعادتها جَذَعةً بين القوميين والإسلاميين.. أو قد يعمل على استغلال بعض القوميين ضد الإسلاميين، أو بعبارة أدق: ضد إرادة الشعوب العربية الإسلامية، وفي مواجهة رغبتها المكبوتة ـ والمعلنة أو التي

تمكنت من التعبير عنها في أجواء الحرية ـ في العودة إلى الهوية العربية الإسلامية، أو في إعادة بناء الدولة على نحوٍ لا تتناقض فيه مع الإسلام بوصفه الدين الاجتماعي المكوّن للأمة والدولة؛ يقول الأستاذ الدكتور برهان غليون: «إن انتقال الدولة الحديثة من أوروبة إلى المجتمعات العربية الإسلامية جعلها أداة استلاب جماعية، ورمزاً للروح القهرية والأجنبية، بحيث نجد الدولة الحديثة في تناقض مع الدين الاجتماعي المكوّن للأمة والدولة»[1].

وربما عمل صعود المد الإسلامي، من جهة. والسقوط الاشتراكي الذي ظن معه بعض كتّاب الغرب أنه نهاية التاريخ! من جهة أخرى. . على بعث الرواسب الأوروبية ضد الإسلام والعالم الإسلامي. . وعلى عدّ الإسلام: العدوُّ الجديد ـ أو الجديد القديم ـ واعتبار العالم الإسلامي: امبراطورية الشر التي ورثت امبراطورية الشر الشيوعية أو حلّت محلّها! يقول الدكتور مايكل سابا: «وفي مقالة نشرتها أخيراً صحيفة «واشنطن تايمز» كتب سياسي تركي مسلم بارز أن حلف شمال الأطلسي (ناتو) قد بدل المناطق الحمر التي تشير إلى العدو السوفييتي (السابق) باللون الأخضر الإسلامي على خرائطه»[2]. والواقع أنه لا توجد في العالم

---

(١) نقد السياسة: الدين والدولة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٢) جريدة الحياة، العدد رقم ١٠٦٥١ تاريخ ١٩٩٢/٥/٧ ص١٣. مقالة بعنوان: إمبراطورية الشر الجديدة! ولا تعدو أن تكون «الأصولية =

بعد السقوط الماركسي ـ فكرةً ونظاماً، أو ديناً ودولة، كما أوضحنا في هذا البحث ـ كتلة عقائدية أو أيديولوجية واحدة تشمل عدة قارّات غير الإسلام، بالإضافة إلى امتلاك المسلمين شروط الوراثة الحضارية. التي تحدثنا عنها في بحث آخر[1]. . الأمر الذي يجعل من فكرة نهاية التاريخ لوناً من ألوان النرجسية، والانطلاق مرة أخرى من المركزية الأوروبية وعقدة التفوق! وما يتبع ذلك من عدم الاعتراف بالحضارات الأخرى أو إلغاء أصحابها، ومحاولة اضطهادهم! فنحن الآن أمام تاريخ جديد، ومع بداية تاريخ، ولسنا في مرحلة نهاية التاريخ! وسوف نعود لدراسة هذه المسألة في بحث مستقل إن شاء الله.

ونبادر هنا إلى القول، بياناً لفترة اصطناع المعارك المشار إليها: إن الإسلام في المجتمع العربي الإسلامي هوية وليس اتجاهاً، أي أنه يمثل هوية الأمة العربية الإسلامية بمختلف فئاتها، وليس خاصاً بفئة معينة، أو شريحة خاصة. . ولكن التعبير عن هذه الهوية في مواجهة تحديات الثقافة الأوروبية، أو بُعيد عصر الصدام مع الحضارة الأوروبية، أخذ شكل الاتجاه! من خلال أنه كثيراً من الشرائح المثقفة سقطت في امتحان التحدي،

= الإسلامية» في الكتابات الغربية ـ وكما يدعونها ـ سوى شيوعية جديدة، أو مجرد إرهاب! وأنها الخطر القادم على الحضارة الغربية.

(١) العالم المعاصر: مدخل إلى الحضارة البديل، للمؤلف. طبع مؤسسة الرسالة.

فتنكّبت ثقافتها العربية الإسلامية، وأضاعت أو كادت، معالم شخصيتها. . كما فعل الماركسيون وغلاة الفكر القومي والعلماني، كما أوضحنا في هذه الدراسة. وهكذا صار الحديث عن الإسلام، أو عن الهوية الإسلامية حديثاً عن «اتجاهٍ» في وسط هذه الاتجاهات العلمانية والماركسية. . المنقولة أو المستعارة من الثقافة الغربية، أو من تاريخ المجتمعات الأوروبية، بوصف هذا التاريخ، في مرحلة معينة أو في عصر نهضة القوم ـ كما أشرنا في هذا البحث ـ هو الذي أفرز هذه المذاهب والمقولات!

وتكمن مشكلة المعارك الحقيقية والمصطنعة في أن الذين تقدموا للتعبير عن هذه الهوية، وقع الكثير منهم ـ وبخاصة في نطاق الدعوات التي انتهى أصحابها إلى ردود الأفعال ـ إما في خطأ التصور، أو في خطأ الممارسة. . فكرّسوا بهذه الأخطاء مقولة إن الإسلام اتجاه وليس بهوية. . في الوقت الذي بالغ فيه القوميون وأصحاب الاتجاهات الأخرى في حمل هذه الأخطاء على الإسلام أو على الهوية ذاتها. . . حتى كادوا أن يجدوا أنفسهم في أفكارهم وممارساتهم ـ وبخاصة في الأقاليم التي حكموها أو قادوها ـ خارج نطاق هذه الهوية. . . بل وجدوا أنفسهم وأنظمتهم في تناقض مع الإسلام، بوصفه الدين الاجتماعي المكوّن للأمة والدولة. والمؤسس للاجتماع السياسي كذلك بحسب عبارات الدكتور غليون. ولقد كان الواجب يقتضي حمل هذه الأخطاء على دعاتها والمعبّرين عن تلك الهوية. . أو المنادين بضرورة إعادة

صياغة الإسلام لحياة الأُمة والدولة مرة أخرى.

والذي نخشاه مع صعود المد الإسلامي الشعبي، الذي تجاوز بحجمه الأحزاب والجماعات الإسلامية بعد خطابها التعبوي الطويل.. أن يدخل أصحاب الفكر القومي ـ وقد عبّروا في جزء من طروحاتهم النظرية عن هذه الهوية، أو عبروا عن طرفٍ منها من خلال مقولاتهم الأولى على وجه الخصوص ـ أن يدخلوا في صراعٍ جديد لامَعَ الإسلاميين هذه المرة.. ولكن مع جماهير الأُمة.. تحت شعار مقاومة الإرهاب، أو محاربة الأصولية... أو تحت سائر الشعارات التي يطرحها الغرب في هجمته الأطلسية الجديدة، وفي حربه الحضارية ضد الإسلام وعالم المسلمين.. وفي التفافه الماكر والمبيّت على مستقبل العروبة والإسلام.

وأعجب ما في هذه الهجمة أنها تتم اليوم تحت شعار الديمقراطية والتعددية واحترام حقوق الإنسان، بغض النظر عن الذين يردّدونها، وتمتد أيديهم للعدوان على أبسط حقوق الإنسان ـ الأصولي هذه المرة! ـ من ورائها. والأمر الذي نخشاه حقيقة هو أن يصدّق القوميون أو غيرهم من فئات الأُمة، هذه الشعارات، أو أن يحتمي بها بعضهم لسبب أو لآخر؛ علماً بأن المسألة في نظر الغرب لا تعدو محاصرة الإسلام؛ فحين سئلت «جين كيركباتريك» التي كانت تمثل بلادها ـ الولايات المتحدة الأمريكية ـ في الأُمم المتحدة، عن سبب دعم بلادها لأنظمة قمعية؟ أجابت بقولها: صحيح أن حكامها ديكتاتوريون، لكنهم ديكتاتوريونا!! فالمسألة

إذن ـ وفي جميع الأحوال ـ أبعد ما تكون عن الديمقراطيه والتعدديه وحقوق الإنسان!

- ٤ -

ويمكن القول بهذه المناسبة إن علينا معشر الإسلاميين ـ مع اختلاف الاجتهادات، وتعدد اللافتات ـ أن ندرك أن الإسلام ليس خاصاً بالمعبّرين عنه، والداعين إليه. . والذين عرفوا كما قلنا بأصحاب الاتجاه الإسلامي، بغض النظر عن حجم الأخطاء التي وقع بها البعض في التصور، أي في الفهم والاجتهاد، واعتقاد أن ما أدّاه إليه فهمه واجتهاده يمثل الشريعة وحكم الإسلام. أو في الممارسة، أي في محاولة التطبيق والتنفيذ، وفي تنزيل هذه الأحكام على واقع الشعوب والمجتمعات. . وما صاحب ذلك من تعثر وصدام، أو ممارسات مغلوطة هنا وهناك. إن انحياز الشعوب العربية والإسلامية إلى الإسلام لا يمكن عدّه إنحيازاً حزبياً أو فئوياً. . على الرغم من الدور الإيجابي الذي قامت به الجماعات والهيئات والأحزاب الإسلامية في إبراز الهوية الإسلامية وفي الدفاع عنها، وفي التضحية في سبيلها. . أمام شتات ثقافة عصر الركود التي انحدرت إلينا من أواخر العهد العثماني، من جهة. وأمام عواصف التغريب أو المعاصرة التغريبية التي سقط فيها أصحاب «الاتجاهات» الأخرى تحت شعار التحديث والتمدين، من جهة أخرى. إن انحياز الجماهير إلى جانب المعبّرين عن الإسلام، والداعين إليه. . انحياز للإسلام. . أو انحياز للهوية الإسلامية

ورجوع إليها بعد هذه التجارب المريرة، والهزائم المتلاحقة التي لحقت بالأمة العربية الإسلامية في غياب الإسلام، أو في غياب الحرية والشورى والديمقراطية، وطمس معالم الهوية.

والعبرة التي نخرج بها من هذه الملاحظة أن هذا الانحياز لا يعني نضج برامج الإسلاميين، أو أن تفحّصها ومناقشتها من قبل الجمهور كان شرطاً للانحياز السابق، أو للتصويت لهم في الانتخابات! . لأن هذا الانحياز تم في غالب الأحيان على أساس العناوين والشعارات، وربما لم يتعده إلى المبادىء والبرامج . . فضلاً عن رؤية هذه المبادىء والبرامج وقد خرج بها إلى ميدان العمل والمواجهة وقبول التحدي بكل ما فيه من عوامل الضغط الخارجي والتسلّط الداخلي . . إن المشروع الإسلامي الذي نحمله وندافع عنه لا بد من مراجعته ومحاولة إنضاجه يوماً بعد يوم على الرغم من أن سماته ـ الاجتهادية ـ ليست واحدة! وعلى الرغم من تفاوت مواقع العمل الإسلامي في البلاد العربية والإسلامية، كما هو ملاحظ ومشهود. وربما كان علينا ـ في هذا المشروع ـ التأكيد على أن العرب هم حجر الزاوية في بناء دولة الإسلام، وإقامة مجتمع المسلمين . . إن الاعتبارات والأسباب التي اختير العرب من أجلها لحمل رسالة الإسلام، والتي عرضنا لطرفٍ هام منها في هذا البحث، قائمة ومستمرة! وتكفينا الإشارة إلى أن عروبة القرآن الكريم، أو لسانه العربيّ المبين الذي يفهمه ويعقل عنه العرب على اختلاف ديارهم كان حاسماً في محاصرة المذاهب والفلسفات المناقضة للإسلام، والتي حُملت إلينا غالباً

على جناح العلمانية أو سرت إلينا في ظلّ مناخها السائد في العالم العربي. وقد يطول شرح هذه النقطة في هذا السياق، ولكن يمكن تأكيدها العابر بأن النجاح ـ النسبي ـ الذي لقيته العلمانية في تركية يعود في الاعتبار الأهم إلى الحاجز اللغوي. ولو أن الأتراك كانوا يتقنون العربية حتى يعقلوا عن القرآن؛ إذن لما بلغ أتاتورك ـ فيما نقدر ـ بعلمانيته الأوروبية ما بلغ، على الرغم من فرضها بجميع الوسائل التي باتت معروفة للجميع. ولهذا فإن تجربة أتاتورك التي حاولت بعض البلاد العربية أن تفرضها، على نحو مزيد ومنقح! لم تنجح على الإطلاق.. بل نقول: إنها لن تنجح في أي يوم من الأيام أياً كانت الوسائل التي تستخدم في إشاعتها وفرضها في أعناق الشعوب!

والأمر الذي نخرج به من هذه الملاحظة أن تبنّي الحركات الإسلامية للتعريب، وتخصيص جزء كبير من برامجها لتعليم العربية في أصقاع العالم الإسلامي في آسية وإفريقية ـ بل في سائر بلاد العالم عن طريق المراكز الإسلامية ـ أضحى مطلباً إسلامياً هاماً وضرورياً للغاية. هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن العمل على وحدة العرب في أمة واحدة هو الطريق إلى إقامة الدولة الكبرى أو الخلافة، أو الإمامة العظمى للإسلام والمسلمين.

ـ ٦ ـ

وغني عن البيان أن الشورى والديمقراطية، ورفض الاستبداد السياسي والديني ـ بحسب التقسيم الذي أشار إليه الكواكبي في

نطاق حديثه عن الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر ـ من سمات المشروع الإسلامي، أو من أركانه الأساسية. ولو لم تكن الحرية والشورى والعدالة والمساواة، والتعددية الدينية ـ والسياسية من باب أولى ـ من قيم الإسلام الخالدة! لكان الاضطهاد الذي لحق بالإسلاميين، والعدوان الذي وقع عليهم في دمائهم وأبشارهم وأموالهم وأعراضهم، على أيدي الحكومات القومية والعلمانية والاشتراكية في العالم العربي، كفيلاً بتأصيل جميع تلك القيم الإسلامية السابقة في نفوسهم، علماً بأنه سبق تأكيدها في أول وأهم إعلان عالمي لحقوق الإنسان في خطبة حجة الوداع التاريخية! على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

وربما كان من المفارقات العجيبة حقاً أن يُطالَب الإسلاميون بالاعتراف بهذه القيم من قبل الأحزاب والسلطات التي مارست ضدهم كل صور القمع والإرهاب! وقد يكون من المفارقات أيضاً، أو في الوقت نفسه، أن تنسب هذه القيم إلى المشروع العلماني، أو أن تجعل من سمات العلمانية، ومن مبررات الدعوة إليها في مقابل المشروع الإسلامي ـ الذي انتهى إليه، أو سوف ينتهي إليه الجميع في نهاية المطاف ـ مع تسليمنا بأن هذه القيم في النسق الأوروبي، أو في الحياة والتاريخ الأوروبيين، كانت أثراً من آثار العلمانية، أو من إنجازاتها الهامة والمحقّقة! فإذا علمنا أن العلمانية الأوروبية هذه قامت في وجه السلطان الكنسي الذي تحالف مع الأباطرة ورجال الإقطاع، من جهة. والذي قاوم اتجاه

(العلماء) ـ علماء الدنيا أو الطبيعة ـ نحو تعليل ظواهر الكون واكتشاف سننه، من جهة أخرى ـ كما شرحناه وحلّلناه في هذا البحث ـ أدركنا معاني الليبرالية والديمقراطية والبرلمانية والتعددية. . . وكيف أنها مثّلت عندهم القيم السابقة المشار إليها أو جاءت تعبيراً عنها؛ حيث حلّ البرلمان محل الكنيسة، أو النوّاب محل الأباطرة، والبرلمانية محلّ طغيان الباباوات والملوك. . وحلّت الديمقراطية محل الثيوقراطية، وصار الحكم في هذه الحال بتفويض من الشعب، وليس بالوكالة عن الله! وحيث حلّت الليبرالية والحرية محل التجريم الكنسي والتحريم الديني. . إلخ.

والذي نود تأكيده في التعقيب على هذه النقطة، أن الإسلاميين لا يطالَبون اليوم بالانحياز إلى الليبرالية والديمقراطية والليبرالية على هذا النحو! فإذا لم يفعلوا ذلك صنّفوا أو تم تسجيلهم على قائمة الإرهاب والتطرف! ولكن القوميين وسواهم هم المطالبون اليوم بالانحياز إلى قيم الإسلام الخالدة، وإلى قيم الهوية العربية الإسلامية المتجذّرة عبر عصور التاريخ. ثم يكون عمل الجميع، في المشروع الحضاري العربي الإسلامي، البحث في الصيغ المناسبة لإخراج هذه القيم إلى حيّز الوجود. . سواء أكانت صيغاً مستعارة أو مستحدثة. . قديمة أو معاصرة. ولم يعد من المقبول محاكمة الإسلاميين إلى تلك الشعارات ـ العلمانية ـ بحيث إذا لم يعلنوا عن «تبنّيها» والدعوة إليها. . ارتفعت الأصوات باتهامهم بأنهم أعداء الحرية والتعددية

والديمقراطية! أو قيل بشأنهم: إن جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي وسائر روّاد النهضة الإسلامية الحديثة في أوائل عصر الصدام مع الغرب، كانوا أبصر بالإسلام، وأوسع صدراً من الدعاة المعاصرين، بحجة أن هؤلاء الرواد خاضوا المعركة الدستورية إلى جانب الليبراليين والديمقراطيين! أولأنهم عدّوا جميع هذه الشعارات والمؤسسات الغربية إسلامية!! علماً بأن هؤلاء الروّاد ـ وفضلهم لا يجحد بكل تأكيد ـ كانوا في ذلك الوقت العصيب في موقف الدفاع عن الإسلام، أو كانوا في الحقيقة يبحثون عن مزايا الإسلام ـ التي كانت متوارية خلف ثقافة عصر الركود ـ من خلال المزايا المبسوطة أمام الناس للحضارة الغربية، أي أن حسّهم الإسلامي كان محكوماً بشعور التفوق الغربي، وغني عن البيان أن الفكر الإسلامي تجاوز هذه المرحلة الآن[1].

- ٧ -

أما في النطاق القومي، فقد حلّلنا في هذا البحث عوامل نشأة الأمم وتكوين القوميات، على النحو الذي اعتمده روّاد الفكر القومي وذهبوا إليه. وانتهينا في هذا التحليل إلى أن هذه العوامل تدخل في نهاية المطاف في الوحدة الثقافية التي حقّقها الإسلام. كما تحدثنا بشيء من التفصيل عن التجاوزات التي وقع فيها القوميّون، والتي نؤكد ـ بهذه المناسبة ـ أن الوقت قد حان

---

(١) انظر تأريخاً لمراحل الفكر الإسلامي المعاصر في بحثنا: الثقافة الإسلامية في الجامعات. ط المكتب الإسلامي.

لمراجعتها وإعادة تقويمها . . تمهيداً لطرحها والتعفية عليها . . بعد هذه التجارب المريرة، وفي ضوء الامتحان والنتائج، من جهة. وفي ظل الانحسار الماركسي والاشتراكي، والعلماني، من جهة أخرى. ونود هنا التأكيد على بعض التجاوزات التي تم سقوطها بالفعل، مما لم تتعرّض له هذه الدّراسة؛ وإلى بعض الملاحظات الإضافية والتوضيحية الأخرى. تمهيداً للإشارة إلى ساحة العمل الواحد أو المشترك في نهاية المطاف.

لقد انتهى فيما نلاحظ القفز على الإسلام وتجاوزه إلى الاشتراكية كفلسفة أو مضمون ثقافي للقومية العربية، كما سقط الخيار العلماني كمضمون سياسي واجتماعي، أو كشعار منقول لم تكن نتيجته الفعلية سوى تفريغ الشخصية العربية الإسلامية من محتواها الثقافي الذي جاء به الإسلام، الأمر الذي مهّد لملئها بالمضمون الثقافي الغربي ـ كما حلّلناه في هذه الدراسة ـ وما تبعه من الضياع والتغرّب.

لقد غدا أي مشروع للنهضة يتجاوز الإسلام محكوماً بالفشل في العالم العربي والإسلامي. ولا يمكن أن ينجح مثل هذا المشروع في غير إطار الشخصية العربية الإسلامية، والثقافة العربية الإسلامية! لأن الإسلام يمثل المشروعية العليا ـ كما يقال بلغة القانون ـ في حياة العرب والمسلمين. . كما يمثل المصير الذي لا يمكن تجاوزه أو الرجوع عنه بحال.

- ٨ -

ومن التجاوزات التي تم سقوطها في وقت مبكر فيما يبدو، وإن كانت قد تركت أثرها في بعض المقولات التي عرضنا لها في هذا البحث، وأعني المقولة التي كادت أن تعود باللائمة على الإسلام لأنه أخرج العرب من جزيرتهم قبل الأوان! المعنى العرقي، أو الفهم العرقي. ويبدو أن آراء غوستاف لوبون (١٨٤١-١٩٣١) في القومية، والتي انطلق فيها من فلسفة التمييز العرقي.. قد تركت ظلالها وأثرها في المعنى السابق. بل يرى بعض الدارسين أن فكر غوستاف لوبون ـ القومي ـ ساهم بشكل عام في تشكيل بعض سمات الفكر القومي العربي! يقول لوبون: «إن وجود أعراق مختلفة في كافة الأراضي التي فتحها الإسلام، كانت له نتيجة أخرى، وهي أن العرب اضطروا للاختلاط بالشعوب التي كانوا يعيشون بين ظهرانيها. صحيح أنهم اختلطوا بأعراق لم تكن أدنى منهم بكثير، مثل مسيحيّي إسبانية! وكان بإمكان العرب أن يكتسبوا منهم بعض القدرات. ولكن اختلطوا أيضاً بأعراق أدنى منهم بكثير، مثل بعض شعوب آسية وإفريقية. ولم يكن العرب إلّا من الخاسرين! وفي الحالتين كان من شأن هذا التقاطع أن يؤدي في نهاية الأمر إلى تحطيم السمات التي كانت تطبع العرق العربي».

وربما كان عدم تسليم بعض القوميين بمبدأ الأخوّة ـ والمساواة ـ الذي قرره القرآن الكريم بين جميع المسلمين، أو عدم وقوفهم

عنده ـ حيث كانت تعرض على الطلاب واليافعين بعض الأسئلة الساذجة حول المفاضلة بين العربي المسيحي والمسلم غير العربي على سبيل المثال ـ مردّه إلى هذه الآراء الشاذة التي ضمّنها «لوبون» كتابه «حضارة العرب» والتي استغرب فيها مبدأ المساواة، أو رأى أنه شديد الصعوبة، ولا يمكن أن يتم في الأصل بغير الضغط والإكراه! وبما أن العرب الفاتحين لم يلجأوا إلى هذه الوسيلة، ولم يخالفوا أحكام القرآن! فقد عرّضوا حضارتهم للخطر!! يقول الفيلسوف المشهور!: «إن جعل العديد من الشعوب المنتمية إلى أعراق مختلفة، وتحمل مشاعر متمايزة عن بعضها البعض، تعيش سوية، إنما هو مشروع شديد الصعوبة. ولا يمكن في أغلب الأحيان أن يكون ممكناً إلّا بفعل إكراه شديد القسوة» ولكن العرب الفاتحين ـ ولنقل في هذا السياق: المساكين ـ لم يفعلوا ذلك، يقول لوبون: «لأن دينهم الذي أتوا به، والمؤسسات التي حملوها معهم إلى الجوار، ثم القبول بها بسرعة شديدة؛ جعل كافة الذين اعتنقوا الإسلام، أياً كانت أصولهم، يعاملون من قبل العرب على قدم المساواة.كان ذلك هو ما ينص عليه القرآن، ولم يكن الفاتحون راغبين في خرق هذا النص»اهـ.

طريف هذا الحديث عن الخرق المبكّر للنصوص، وأطرف منه هذا التعليل المعكوس... وفي جميع الأحوال يؤكد «لوبون» على أن «الامتزاج العرقي كان كافياً وحده لنسف الحضارة العربية

بأسـرهـا»!! ونستـطيع هنـا التأكيد على أن هذا التشويه الثقافي انعكس أثـره على مناهج التعليم القومية في مواقف أكثر من أن تحصى! ونـذكـر الآن، بمرارة عابرة، أننا عُلّمنا أو لُقّنا قبل نحو أربعين عامـاً في بعض سنـوات الـدراسـة الإعدادية أن العاطفة الإسلامية التي ظهر أثرها في شعر أحمد شوقي كانت بسبب أصوله غير العربية، فقد كانت إحدى جدّتيه يونانية.. والثانية من أصل شركسي أو تركي.. لم نعد نذكر! أي أن هذه الأصول أو الأنساب غير العـربية هي التي أثّـرت في انحياز أمير الشعـراء رحمـه الله للإسلام، وعدم انحيازه للقومية العربية!! قلت: وأمثال هذا الفساد التعليمي الذي ساد فترة طويلة، وساهم في زرع بذور التفرقة في نفوس الأجيال بين العروبة والإسلام، أو بين العربية والإسلامية.. كثير جداً.. وبخاصة في حقلي الأدب والتاريخ.

- ٩ -

عرضنا في هذا البحث لمسألة «تاريخية» الإسلام في الفكر القومي. والذي نضيفه هنا أن هذا التجاوز الحاد يعدّ من أخطر المسائل والمعوّقات، لأن الإصرار عليه، أو عدم تبين وجه الحق فيه.. يُبقي أصحـابـه خارج المشـروع الحضـاري العـربي الإسلامي.. ومن ثم يبقيهم بكل صراحة ووضوح خارج التاريخ!

لقد ناقشنا هذه المسألة بشيء من التوسع، كما تحدثنا عنها في إطار بحث مستقل دار حول علاقة الثقافة بالتاريخ، أو حول علاقـة كلٍ من الثقـافتين الإسـلامية والأوروبية بالتـاريخ - على

أساس أن الثقافة الإسلامية صنعت التاريخ، والثقافة الأوروبية صنعها التاريخ ـ آخذين بعين الاعتبار معطيات الثقافة الغربية من علمانية واشتراكية. . وسائر المقولات التي نادى بها بعضنا أو تأثر بها، والتي تعدّ في الأصل من صنع التاريخ الأوروبي.

ويبدو أن المسألة ما تزال مطروحة، أو ما تزال تعرض من منطلق أن الإسلام لم يتكون خارج التاريخ! ولا يحملنا الدفاع أو رد الفعل على القول إن الإسلام تكوّن داخل التاريخ. . لأن هذا بدوره ليس صحيحاً أيضاً. ولكن الذي نقوله: . . إن أصول الإسلام وثوابته المتمثلة في القرآن والسُّنّة لا تنقطع في كل عصور التاريخ. . وهي التي صنعت وتصنع التاريخ. ومن ثم فإن الذي لم يتكون خارج التاريخ هو التراث الإسلامي، وليس «الإسلام» إذا قلنا إن المراد به في هذا السياق القرآن والسُّنّة، ويتمثل التراث في هذه الحال، أو بالنسبة لنا كمسلمين، في فهوم الأجيال السابقة للنصوص، وفي تنزيلها على (الواقع) أو على واقع تلك الأجيال عبر العصور، بالإضافة إلى التفاعل الحيّ مع ثقافات الأمم والشعوب. وهذا هو موضوع الاجتهاد الدائم الذي لا يجوز ـ لهذا ـ أن ينقطع في أي عصر. .

وليست المسألة عندنا، أو بهذه المناسبة، في أننا أُمةٌ تعيش النصوص، أو أنها مسكونة بالنص، بحسب عبارات بعضهم المحفوظة أو المكرورة!! لأن النص عندنا، من حيث صحته وثباته وخلوده وآفاقه وإنسانيته ـ أو تفصيله على الإنسان خارجاً من حدود

البيئة أو الزمان (التاريخ) . . . إلخ - غيره عند الآخرين . . الذين ما نزال مع شديد الأسى والأسف نسقط مقولاتهم فوقنا، أو نسحب آراءهم ومذاهبهم علينا وعلى تاريخنا وعلى نصوصنا . . وعلى واقعنا ومستقبلنا!! . . ولا يدري المرء متى ينفرط عقد هذه (السبحة) التي ما يزال بعض مثقفينا، أو مترجمينا يكرّرون على إيقاعها - الغربي - المقولات، ويعيدون المحفوظات والمنقولات!!

- ١٠ -

وتذكر قضية النص والاجتهاد، والعجز العلماني، أو فشل العلمانية في تحقيق التقدم والوحدة في البلاد العربية والإسلامية، باقتراح بعض القوميين استبدال «العقلانية» بالعلمانية، أو رفع شعار العقلانية بدل العلمانية. وعلى الرغم من أن هذا الشعار ليس مرفوضاً عند أحد، وعلى الرغم كذلك من الدور المعروف أو المعهود الذي أُنيط بالعقل في الإسلام على وجه العموم، وفي حقل الاجتهاد والتفسير على وجه الخصوص؛ فإننا نكتفي بالإشارة إلى بعض مواصفات هذه العقلانية، أو بعض شروطها في هذا السياق. ونستشهد هنا بما قاله السيد الأستاذ محمد مزالي الوزير التونسي الأول السابق، وأحد روّاد التعريب في المغرب العربي: «إن العقلانية، أي اعتماد العقل في تحليل الواقع، والتخطيط لتغييره ووضع الخطط والبرامج والمناهج الكفيلة ببلوغ القصد . . تقتضي كذلك التخلص من «التلوث» الثقافي، والاستلاب وعقد

النقص إزاء الدول المتقدمة، وصيانة النفس من التبعية المتسترة بالمعاصرة والتقدمية ولغة الأرقام!!

«يتصور الكثير منّا أن «التنمية» ـ كما تدعى ـ تتحقق بالنمو الكمّي الذي يحصل لبعض المتغيرات المرقمة الداخلة في حساب الناتج المحلّي الإجمالي! ينبغي تجاوز هذه الاستراتيجية الغربية للتنمية.. نتحدث عن وجوب التغيير الاجتماعي والثقافي، ولكن مرة أخرى: ليس على أساس الاقتداء بالنمط الاجتماعي الغربي في بناء المجتمع (شرق أو غرب). كلنا يعلم أو يدرك اليوم مضاعفات هذا «التقدم ـ الانصهار» في المجتمعات الغربية، وسلبياته على الشباب، وما أورثه من ذبذبة حضارية، ونيلٍ من مقومات الكرامة الوطنية»[1].

العقلانية المطلوبة إذن هي التي تحقق لنا الاستقلال الثقافي، والمناعة الوطنية.. وتضعنا من ثم على طريق التقدم والوحدة والتأصيل الحضاري. وليس على طريق التخلف والتبعية والاستلاب الحضاري. والذي نخشاه حقيقة هو أن تكون هذه الدعوة الجديدة، أو هذا الشعار الجديد، مجرد محاولة ـ أو غطاء ـ لبعث التغرّب أو الاستغراب، أو لشد أزره من جديد، بعد أن ترنح بترنح العلمانية.. ومعلوم أنه مشى في ركابها أو انطوت هي عليه كما أوضحنا في هذا البحث.

---

(١) العدد ٢٤٦ من مجلة اليوم السابع. الصادر بتاريخ ١٩٨٩/٢/٢٣. ص١٧.

ولا خلاف بعد، أو في جميع الأحوال، على العقلانية التي تقـوم على قواعـد العقـل في القبول والرفض. . أو في التحليل والتعليل. ولا خلاف كذلك على أن العقلانية المطلوبة في كل حين، هي التي تخلّص الإنسان من عُقد النقص وردود الأفعال. وهي التي تحـرره من جميع الأوهام والأوثان، وتضع عنه كذلك جميع الأغلال. . سواء أكانت أغلال الفكر، أم أغلال السياسة، أم أغلال التاريخ!

- ١١ -

وتبقى الإشارة أخيراً إلى ساحة العمل الواحدة أو المشتركة بين أبناء الأمة العربية الإسلامية، وقد فاؤوا جميعاً إلى رحاب الثقافة العربية الإسلامية، وإلى ساحة العروبة والإسلام. بعد أن التقى القـوميّون العـروبيون والإسـلاميون الملتزمون لوقت طويل على مقارعة الاستعمار، ومقاومة الهيمنة الخارجية. وربما كانت اللحظة الحاضرة التي تشهد أعتى صور هذه الهيمنة، بعد عصر الحرب البـاردة وسياسة الاستقطاب الدولي ـ فيما سُمّي بالنظام العالمي الجـديد ـ أدعى الأوقـات للتـأكيد على اللقـاء والتلاحم، وعلى تأكيده وتعميقه أمام هذه الهيمنة الجديدة، أو الهجمة الشديدة، البالغة العنف، والتي تكاد تكون في التحليل الأخير موجهة للعرب والمسلمين، أو ضد العـرب والمسلمين من بين سائـر أصحـاب الديانات والثقافات والحضارات أجمعين!.

ولن ينفعنا أو يشفع لنا في هذه المرة أن نـستعير مقولاتهم،

أو أن نحاصر أنفسنا وعقولنا في قوالبهم . . أو نرهن أنفسنا لحساب حضارتهم! لقد سقط الخيار الغربي أو الأوروبي الذي نادى به بعضنا أو وقع فيه بشكل أو بآخر! ولم يعد أمامنا إلّا الحضارة العربية الإسلامية، وإلا الإسلام الذي رضيه الله تعالى لنا، ورفعنا به إلى مقام الشهادة على الناس من أول الطريق. . وفي خاتمة المطاف! إن القوم أنفسهم، أو أصحاب الحضارة الأوروبية ذاتها لم يعد مقبولاً لديهم ـ ولا كافياً في نظرهم ـ أن ننادي «بوحدة الوجود» مع أوروبة! لأن المطلوب منّا في هذه المرحلة العصيبة: أن نخضع لهم. . لا أن نندمج فيهم أو نفنى في حضارتهم ومجتمعاتهم. . .

ولا أدري ماذا كان سيقول أولئك «الروّاد» الذين رفعوا في مصر منذ نحو مائة عام لواء: «مصر أوروبية»! وأعني بهم مفكّري حزب الأحرار الدستوريين على وجه الخصوص، أمثال أحمد لطفي السيد وعبدالعزيز فهمي وطه حسين. . لو أنهم شهدوا ما نشهده الآن! لطفي السيد «الذي لم يكن يفصله عن الأوروبيين في تفكيرهم وفي تمثل حياتهم وتقليدهم سوى سحنته المصرية الخالصة. وعبدالعزيز فهمي الذي دعا إلى ترك الحروف العربية واعتماد الحروف اللاتينية كي نفلح في هذه الدنيا كما أفلح الأتراك على يد مصطفى كمال»[1]، وطه حسين الذي حدّد لنا طريق

---

(١) جهاد فاضل: الانبهار بالغرب طريقنا إلى ضياع الهوية. مقالة في ملحق جريدة القبس، العدد رقم ٦٣٠٥ تاريخ ٢٧ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٩٨٩ ص ١٠.

التقدم بأنه التأورب فقط لا غير! رحمه الله وغفر الله له. إن علينا ـ كما يقول طه حسين ـ «أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً(!) ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرّها» ولكن ألا يخشى على مصر من «أن يؤدي الاتصال القوي الصريح بالحضارة الأوروبية إلى التأثير على شخصيتها القومية وطمس ما ورثنا عن ماضينا وعن تراثنا» الجواب أننا «كنّا معرَّضين لخطر الفناء في أوروبة حين كنّا ضعافاً مسرفين في الضعف (!!) وحين كنّا نجهل تاريخنا القريب والبعيد، وحين لم نكن نشعر بأن لنا وجوداً ممتازاً. . أما الآن وقد عرفنا تاريخنا، وأحسسنا أنفسنا، واستشعرنا العزة والكرامة، واستيقنّا أن ليس بيننا وبين الأوروبيين فرق في الجوهر، ولا في الطبع، ولا في المزاج، فإني لا أخاف على المصريين أن يفنوا في الأوروبيين»اهـ.

يقول الأستاذ جهاد فاضل في التعقيب على هذه الآراء: «إذن الفناء في أوروبة أو التطلع إليها كقبلة حضارية تلك هي نظرة طه حسين إلى مسألة التعامل مع أوروبة. وهي نظرة تبنّتها في الوقت نفسه بعض الأقليات أو الانفصاليات في بعض الدول العربية التي حاولت أن تتخذ من «المتوسطية» أو «الأوروبية» وضرورة الانتماء إليها بديلاً من العروبة أو الحضارة العربية الإسلامية، أو أن تقدّمها كمصل مضاد للعربية»[1].

قلت: وقد تبين الآن، وبعد هذا التاريخ والتجارب! أن

(١) المرجع السابق. وانظر كتاب مستقبل الثقافة في مصر، القاهرة ١٩٣٧.

العربية لا تهزم، وأن ترياقها مستمر. . وأن عودة الشخصية العربية الإسلامية للظهور فاعلة مؤثرة مرة أخرى، بعد كل محاولات التشويه والتمزيق، والتطويع والتفريغ. . يؤذن بعودة الحضارة العربية الإسلامية في التاريخ المعاصر، علماً بأنها الحضارة الوحيدة المرشحة للظهور لأسباب كثيرة. وأقل ما يمكن قوله في هذا السياق: أنه مع تكفّل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم؛ فإن لغة العرب باقية، ووجود العرب مستمر، ودورهم في التاريخ لن ينقطع. وليس من قبيل المصادفة، بمناسبة هذا الحديث عن الأوربة والتغرب في مصر؛ أن تتقرر عروبة مصر - في تاريخها الحديث - من خلال الإسلام، ومن خلال الدعوة الإسلامية التي شهدتها مصر بعد سقوط الخلافة على يد أتاتورك. . حين أكّدت هذه الدعوة على وصل مصر بالعالم العربي والإسلامي. . وحين استطاعت أن تعفّي على شعار: مصر أوروبية، وشعار: مصر للمصريين. . على الرغم من كل ما كان يلقاه هذان الشعاران من كل وجوه الدعم والتأييد. . في الداخل والخارج.

والذي نراه هنا هو أن الاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، والعمالة الحضارية، ينبغي أن تشكل بعد اليوم الهموم المشتركة للجميع، وقد كانت همومنا على الدوام في حقل العمل الإسلامي. وكنّا نرى أن العلاقات بينها متشابكة، غير أن تعامل الآخرين مع هذه الهموم قام - كقاعدة عامة - على دعوى محاربة الظلم الاجتماعي، أو تحقيق العدالة الاجتماعية، فكان

يتخـذ من هذه الدعوى وسيلة أو ذريعةً إلى الاستبداد السياسي. وكان هذا الاستبداد بدوره هو المناخ الحقيقي لفرض العلمانية أو الـدعوة إلى الاشتراكية.. وإلى سائر المذاهب والآراء الأوروبية التي يمثـل الخضـوع لهـا من وجهة نظرنا لوناً من ألوان «العمالة الحضارية» كما يمكن أن تُدعى. وأصحاب الفكر القومي مدعوون اليوم للمشاركة الحقيقية في هذه الهموم جميعاً، وبخاصة الثالث منها.. لا على مستوى الفكر والنظر فحسب، بل في واقع التطبيق والتنفيذ.

- ١٢ -

وأخيراً، فإن الـذي نختتم به هذه المقـدمـة، تلخيصـاً لهذه النقــطة الأخيرة، وتعقيبـاً كذلـك على ما جاء في بعض النقـاط السـابقة، ما قاله الكاتب التونسي الأستاذ الهاشمي الحامدي في ختـام مقـالة مقتضبة كتبها على هامش الصراع السياسي العنيف الذي جرى في تونس والجزائر بين الحكومة والإسلاميين، قال:

«إن المـأزق السياسي والتـاريخي الكبير الـذي يواجهنـا في المغـرب العـربي (وفي أكثـر أنحـاء الوطن العربي تقريباً) هو أن مساحة الاتفاق على ثوابت حضارية وتاريخية مشتركة تعطينا جميعاً الإحساس بالولاء لوطن واحد ولأمة واحدة، قد تقلّصت إلى درجة كبيرة، وأصبحت السياسـة هي العقيدة، ولم يعـد بإمكان القوى السياسية أن تتنافس سلمياً للدفاع عن مصير سياسي وحضاري واحد..»

ثم يقول: «مهمتنا المركزية الآن يجب أن تكون البحث عن أسس السلام الأهلي الدائم في مجتمعاتنا. فإذا ما اتفقنا على نقل خلافاتنا السياسية والاقتصادية وما شابهها من دائرة الاعتقاد إلى دائرة الاجتهاد الذي يصيب ويخطىء، فإننا سنرسي الشرط الأكبر للسلام الأهلي الدائم في العالم العربي.

«إن المجتمع العربي لن يتقدم بغير الاتفاق على مرجعية عليا ذات قوة توجيه حضاري وأخلاقي لحياتنا العامة.

وهذه المرجعية لا يمكن أن تكون إلّا الإسلام. فإذا اتفقنا على ذلك، واتفقنا معه على ضرورات التحديث والتطوير والاجتهاد والتسامح؛ فإن فرصنا في التقدم إلى الأمام، إلى الأفضل، ستصبح واقعية وممكنة»[1].

والحمد لله أولاً وآخراً.

د. عدنان محمد زرزور

عمّان في ٤ صفر ١٤١٣هـ

٤ آب «أغسطس» ١٩٩٢م

---

(١) جريدة الحياة، العدد ١٠٧١٧ تاريخ ١٩٩٢/٦/١٣.

القوميّـــة

أولاً: مدخل وتعريف

القومية تعبير عن وجود جماعة من الناس يتكلمون لغة واحدة، وينحدرون غالباً من أصل واحد. كالعرب والترك والفرس. ويمكننا القول إن هذا تعريف أو ما يشبه التعريف، لأننا لم نقف على تعريف واحد ظاهر أو متفق عليه بين دعاة الفكر القومي ـ الأمر الذي يعكس الخلاف على المضمون إلى حدٍ كبير ـ حتى إن بعضهم يقول: إن التعريف الجامع المانع للقومية يكاد يكون مستحيلاً!! بل إن بعض الباحثين يرى أن محاولة تقديم تعريف للقومية العربية ليس مقبولاً.. في الوقت الذي قال في نعت القومية «إنها الوعي العربي بمظهره الأخير» و «إنها لم تكن صدى لحركات قومية أخرى، بل إنها تعبير عن تنبّه ذاتي، وتجديد لهذا الوعي عن طريق التحرر والحياة الكريمة»[1].

وقد حاول باحثون آخرون وضع تعريف للقومية من خلال الحديث عن طبيعة الروابط التي تشد الأفراد بعضهم إلى بعض،

---

(١) الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري: الجذور التاريخية للقومية العربية، ص ٩ طبع دمشق.

أو إلى قوميتهم! . . أي من خلال الإشارة إلى «مقومات» قومية من القوميات أو عوامل تكوينها، فقال بعضهم ـ على سبيل المثال ـ: «القومية نزعة تربط الفرد بقومه بروابط متجانسة، كالقرابة، واللغة، والعادات والتقاليد، والتاريخ، وتوحّد بينهم أهداف مشتركة، كالوحدة، والتحرر، والحرية، والعدالة» وهكذا تم الربط في هذا التعريف بين تعريف القومية و مقوماتها أو عوامل تكوينها.

ويمكننا الإشارة أمام هذه المحاولة الأخيره، إلى ما ذهب إليه الباحث المؤرّخ العلّامة عمر فروخ رحمه الله حين تحدث عن هذه العوامل، أو عن أبرزها في نظر دعاة الفكر القومي، من خلال أثرها في إذكاء الشعور بالانتماء إلى الأصل الواحد ـ الذي أشرنا إليه ـ أو مدى تضافرها وتآزرها في إذكاء هذا الشعور. الأمر الذي مكّنه من تعريف القومية بأنها: «شعور جماعة من الناس بأنهم ينتمون إلى أصل واحد» قال: «والدليل على ذلك أنهم يتكلمون لغة واحدة، ويشتركون في تراث واحد، ثم يتجه تاريخهم اتجاهاً واحداً جامعاً»[1].

وهو الأمر الذي أتاح له كذلك أن يقول في نعت القومية، أو في تعريفها بإيجاز إنها «العصبيّة الجنسيّة» لأن هذه العوامل الثلاثة: اللغة، والتراث، والتاريخ. . تصبّ في نهاية المطاف في دائرة الأصل الواحد، أو تتفاعل في بوتقة «جنسٍ» معين من الناس، كالعرب، والفرس، والأكراد، والأرمن. . إلخ.

---

(١) كتاب: تجديد التاريخ، للدكتور عمر فروخ رحمه الله.

قلت: وأيا ما كان الرأي في وجهات النظر المتعددة هذه - وغيرها كثير - على الرغم من دقة ما ذهب إليه الدكتور فروخ رحمه الله؛ فإن القومية لا تعدو أن تكون «رابطة تاريخية لغوية» في الاعتبار الأهم، وأن الدعوة إليها ينبغي ألا تتعدى الشعور بمدى أهمية هذه الرابطة وحيويتها في مرحلة من مراحل اليقظة التي يمر بها شعب من الشعوب، أو أمة من الأمم (أو قومية من القوميات)! وإن كان من المؤسف بحق أن الأمر لم يجر على هذا النحو في القومية العربية في العصر الحديث؛ لا من حيث ظروف وملابسات النشأة، ولا من حيث المضامين الفكرية والاجتماعية التي أُعطيت لها من قبل كثير من دعاة الفكر القومي، والتي جاءت مناقضة لكلٍ من هذين العاملين: اللغة والتاريخ؛ أي مناقضة «للوجود» القومي، أو «للفكرة» القومية ذاتها، كما سنوضح بعد قليل.

ونكتفي هنا بالقول: إن دعاة القومية - على وجه الإجمال - أغفلوا دورَ الدين أو العقيدة الدينية في قيام الحضارات، ونشوء الأمم والقوميات، كما أغفلوا دوره في الربط بين أفراد جماعةٍ - أو جنسٍ - من الناس، على الرغم من أثره - وربما أثر المذهبية الدينية فوق ذلك - في الحركات القومية التي اجتاحت أوروبة في القرن التاسع عشر، من جهة. وعلى الرغم من العلاقة الخاصة بين العروبة والإسلام، أو بين «القومية العربية والدين الإسلامي» - بحسب عبارة الأستاذ ساطع الحصري - من جهة أخرى.

ونحن قد نقبل في فقرات البحث التالية، وحسماً لدائرة الخلاف، الطرح الذي اتفق عليه معظم دعاة الفكر القومي، أو

انتهـوا إليه، عن عوامـل نشأة الأمم وتكوين القوميات. . تمهيداً لمناقشة هذا العوامل أو تحليلها ومناقشتها على ضوء وحدة الثقافة الإسلامية، أو وحدة العقيدة الإسلامية وما انطوت عليه من «أخوّة الإيمـان والاعتقـاد»، لنـرى أن هذه العـوامـل لا تنـاقض إخـوّة الإسلام، أو لا تخرج عنها في نهاية المطاف، الأمر الذي يلغي عنـدنـا فكـرة التناقض أو الاختلاف بين العروبة والإسلام، كما يجعـل من التحدي الذي قام في وجه الثقافة الإسلامية من قبل الفكر القومي أو «الثقافة القومية»! فكرة موهومة أو زائفة، أو طرحت خطأً من جميع الوجوه.

وسوف يتأكد لنا من خلال هذا البحث، أن هذا التحدي الذي بلغ حدّ المنـاقضـة والمحـادّة في بعض الأحيان، أو في بعض المـراحـل، يعـود ـ كمـا أشرنا ـ إلى الملابسات التاريخية التي صاحبت نشأة الفكرة القومية في البلاد العربية، من جهة. وإلى المضـامين الفكـرية التي أعـطيت لها، أو المذاهب الاجتماعية والسياسية التي قُرنت بهـا ـ وهي ليست منهـا، أو لا تستلزمهـا «طبيعتها» ـ من جهة أخرى.

ثانياً: عوامل النشأة

نشأت الدعوة إلى القومية العربية تحت تأثير عاملين رئيسين اثنين:

العامل الأول: مجاراة القومية الطورانية، ورد فعل على سياسة «التتريك» التي تبناها أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، بعد أن أحكموا سيطرتهم على الدولة العثمانية، في أعقاب خلعهم للسلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله عام ١٩٠٩م.

ومن المعلوم أن معظم أعضاء هذه الجمعية، التي انبثقت من حركة الأتراك الشبّان، كانوا من «الدونمة» الذين عاشوا في مدينة «سلانيك» في شبه جزيرة البلقان - التي كانت تابعة للدولة العثمانية - والدونمة هؤلاء يهود منافقون، أو منافقون أخفوا معتقدهم اليهودي، أو اتباعهم لتوراة موسى على وجه الخصوص[١]، وراء التسمّي بأسماء إسلامية، ومن خلال تظاهرهم بشعائر الإسلام.. حتى تمكنوا من الكيد للإسلام وللدولة العثمانية حين سنحت لهم الفرصة «وقد توصلوا إلى مراكز سامية

---

(١) راجع كتاب: نشوء القومية العربية للدكتور زين نور الدين، ص ٢٠٧

في الحكومة وفي الجيش، ثم استطاعوا أن ينفذوا إلى قصر السلطان عبدالحميد»[1].

ويضيف بعض المؤرخين أن هذه الجمعية لم يظهر بين زعمائها وقادتها «عضو واحد من أصل تركي صاف»! بل كان هؤلاء القادة، أو «أصحاب العقول المحركة في هذه الجمعية» مع يهوديتهم موزعين بين أصول اسبانية وبولندية ومجرية. . وبلغارية! وقد ظهر أثر ذلك كله في السياسة التي تبنّتها هذه الجمعية، فقد كانت تحمل روح العداء للإسلام وللخلافة العثمانية (أو دولة الأتراك) وقد عرفت هذه السياسة بالسياسة الطورانية، ومعناها: الرجوع إلى خصائص الأسلاف الطورانيين (من سكان التركستان في أواسط آسية) قبل دخول الترك في الإسلام، ولهذا فقد رفعوا شعار «الذئب الأغبر» الذي كان معبود الأتراك في جاهليتهم هذه، وبدأوا في الوقت نفسه بفرض اللغة التركية وحدها على جميع شعوب الدولة العثمانية، ومحاولة صبغها بالثقافة التركية.

وعداء هذه السياسة الطورانية للإسلام لا يحتاج إلى بيان، أما عداؤها للدولة العثمانية، بل للأتراك أنفسهم على المدى القريب والبعيد، فيبدو من خلال استحالة تتريك جميع شعوب الدولة! لأننا إذا علمنا استحالة تتريك هذه الشعوب، أدركنا أن هذه السياسة كانت بمثابة إعطاء مبرر لجميع الشعوب التي كانت خاضعة

---

(١) تجديد التاريخ للدكتور عمر فروخ، ص ٢٨٤

للسلطة العثمانية لكي تدعو إلى قوميتها، وتطالب من ثم بالانفصال عن دولة الخلافة!

وهكذا، بدأ العرب يدعون إلى قوميتهم مجاراة لهذه الدعوة الطورانية الجاهلية، ورد فعل على سياسة التتريك! يقول الأستاذ الدكتور عمر فروخ: «فلما انكشفت هذه الحركة المتطرفة لشعوب الأمبراطورية العثمانية انفلت العرب خاصةً إلى حركة عربية متطرفة في الدعوة إلى القومية العربية الجاهلية (. . .) من أجل ذلك نشأت جمعيات عربية كانت في الواقع رد فعل لجمعية «تركية الفتاة»[1].

«من هذه الجمعيات التي كان بعضها عربياً متطرفاً، كما كان بعضها معتدلاً: جمعية الاخاء العربي، المنتدى الأدبي، الجمعية القحطانية، العلم الأخضر، العهد، الجمعية الاصلاحية، جمعية الناطقين بالضاد، وهي جمعية نشأت عام ١٩٠٩ . ثم إن الطلاب العرب في باريس بدّلوا اسمها عام ١٩١١، وجعلوه: الجمعية العربية الفتاة . وكانت تعرف اختصاراً باسم: الفتاة[2].

وعلينا أن نذكر هنا، تعقيباً على هذا المعنى الوثني الجاهلي الذي أشار إليه الأستاذ الدكتور عمر فرّوخ أن هذا التطرف كان عند بعض هذه الجمعيات، وعند نفرٍ من العرب، كما أشار هو نفسه رحمه الله لأن بعض العرب الآخرين لم يتجاوزوا الرفض المشروع

---

(١) الاسم الذي عرفت فيه حركة الأتراك الشبان في اللغة العربية.

(٢) تجديد التاريخ للدكتور فروخ، ص ٢٨٦ .

للقومية الطورانية وسياسة التتريك، إلى أي تعريض بالإسلام أو انتقاص لأبعاده. . أو إلى أي بعثٍ للتاريخ الجاهلي أو دعوة إليه، ولو في هذه المرحلة على الأقل. بالإضافة إلى أن كثيراً من الجمعيات والشخصيات العربية بقيت على ولائها العثماني، بوصفه ولاءً للاسلام ولدولة الخلافة، وبقيت لذلك حريصة على الخلافة ووحدة الدولة والأمّة. . مع دعوة بعض المفكرين إلى ضرورة العودة بهذه الخلافة إلى العرب مرة أخرى.

العامل الثاني: استعارة الأفكار والنظم الغربية، أو تقليد الأوروبين في شعارات عصر نهضتهم بوجه خاص، ومعلوم أن القرن التاسع عشر عُرف عندهم بعصر القوميات. لقد سرت الدعوة إلى القومية إلى العرب والمسلمين في عصر التفوق الأوروبي، وفي الوقت الذي لم تكن علاقات العالم الاسلامي بأوروبة ضعيفة أو محدودة! ويكفي أن نشير في نطاق هذه العلاقات إلى «الامتيازات» التي كانت تتمتع بها الدول الأوروبية (بريطانية وفرنسة والروسية خصوصاً) في الدولة العثمانية. وإلى الإرساليات الدينية ومدارس التبشير التي لم تكد تخلو منها حاضرة أو مدينة من حواضر الدولة العثمانية في الشرق. بالإضافة إلى الحروب الدولية على الدولة العثمانية، والتي زادت في هذا القرن وحده ـ التاسع عشر ـ على خمسة عشر حرباً[1].

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

ولقد كان هذا العامل أقدم ظهوراً من سابقه، لأنه وجد قبل خلع السلطان عبدالحميد، وقبل أن يمضي «الاتحاديون» في سياسة التتريك، ويحكموا قبضتهم على الدولة[1]. ولكنه لم يكن، في هذه المرحلة على الأقل، الأخطر أثراً! لأنه بقي محصوراً في نطاق الذين تلقوا معارفهم الثقافية على يد الإرساليات الدّينية وفي مدارس التبشير، أو في نطاق النصارى العرب على وجه الخصوص.

وربما أمكن عدّ هذا السبب الأبعد أثراً من الوجهة الفكرية بعد عشرات السنين.. عندما اتّسع نطاق تقليد الغرب، واستعارة الأفكار الأوروبية لدى عامّة المثقفين، نتيجة لشيوع التعليم على المناهج المنقولة من مدارس الدول المستعمرة، أو تلك التي تمتعت بحق الوصاية أو الحماية أو الانتداب على البلاد العربية! أوبعبارة أخرى: بعد أن تكاتفت جميع المدارس: الخاصة ـ مدارس الارساليات ـ والحكومية أو الرسمية على أداء مهمة واحدة أو متقاربة في نهاية المطاف!

ويفسّر هذا العامل الثاني ـ بدوره ـ لماذا جرى التركيز لدى دعاة القومية العربية، وفي عصر النشأة هذا، وفي أبرز الأطوار

(١) تعود نشأة «حركة الأتراك الشبان» ـ أو تركية الفتاة ـ إلى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، غير أنها لم تظهر ولم تكتسب قوة فعّالة إلا نحو عام ١٩٠٧. وكانت مصر، في ظل الاحتلال البريطاني، مركزاً مهماً لهذه الحركة في العالم العربي.

اللاحقة بعد ذلك، على النموذج الايطالي والألماني، من دعوات الوحدات القومية في أوروبة، دون النماذج التي تمت الدعوة إليها في البلقان على سبيل المثال، أي في نماذج الأمبراطورية العثمانية ذاتها!

وفي جميع الأحوال، فإن في وسعنا تحديد ظهور القومية الطورانية وسياسة الاتحاديّين في التتريك، فاصلاً بين عهدي الدعوة إلى القومية العربية: العهد الذي كادت أن تكون فيه وقفاً على النصارى، أو كانت كذلك بالفعل، ثم العهد الذي ظفرت فيه بعدد غير قليل من المسلمين.. على تعددٍ عندهم في الآراء، واختلافٍ أو اختلاطٍ في المفاهيم.

وفي هذا يقول صاحب كتاب «يقظة العرب» ـ جورج أنطونيوس ـ: «يرجع أول جهد منظم في حركة العرب القومية إلى سنة ١٨٧٥ حين ألّف خمسة شبان من الذين درسوا في الكلية البروتستنتية ببيروت (قلت: الجامعة الأمريكية فيما بعد) جمعية سريّة، وكانوا جميعاً نصارى»[١].

ثم يربط بين هذه الجمعية السرية والمحفل الماسوني، بالعبارات التبريرية أو المموّهة التالية: «وكانت الماسونية قد دخلت قبل ذلك بلاد الشام على صورتها التي عرفتها أوروبة (!) فاستطاع

(١)كتاب: يقظة العرب، تأليف جورج انطونيوس، ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس، ص ١٤٩ . الطبعة السابعة. بيروت.

مؤسسو الجمعية السريّة عن طريق أحد زملائهم أن يستميلوا إليهم المحفل الماسوني الذي كان قد أُنشىء منذ عهد قريب، ويشركوه في أعمالهم»[1]!!

وكان قد قال قبل ذلك: «إن قصة الحركة القومية بدأت في بلاد الشام سنة ١٨٤٧ بإنشاء جمعية أدبية قليلة الأعضاء في بيروت في ظل رعاية أمريكية»[2]. كما أضاف إلى هذه الرعاية الأمريكية رعايةً أخرى فرنسية، في حديثه عن هذه القصة، فقال: «كان من نتائج التسامح الذي تميّز به حكم إبراهيم باشا ـ في بلاد الشام ـ نتيجة لم تخطر على البال من قبل (!) فقد فتح هذا التسامح الباب أمام البعثات التبشيرية الغربية، وبذلك أتاح مجال العمل لقوّتين: إحداهما فرنسية، والأخرى أمريكية. قُدّر لهما أن تحتضنا البعث العربي وترعياه»[3].

ثم يعود جورج أنطونيوس إلى تأكيد دور النصارى في بذر بذور القومية العربية، من جهة. وكيف أن هذه البذور آتت ثمراتها أخيراً «حين قُضي على طغيان عبدالحميد»! هكذا بحسب عبارته التي تعبّر عن رأيهم الشائع فيه رحمه الله، من جهة أخرى، فيقول:

«ولذلك انتقلت هذه الآراء التي بذرها النصارى في البداية،

---

(١) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) المصدر السابق، ص ٧١ .

(٣) يقظة العرب، ص ٩٧ .

وأصبحت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تجد تربة صالحة للنمو بين المسلمين» ويضيف: «ولم يكن هذا التحوّل ملحوظاً في ذلك الحين، لأن الحركة كلها كانت في مرحلة توقف وتعطل في الظاهر. ومع ذلك فقد كان هذا التحول حقيقياً وحاسماً، وظهرت آثاره بسرعة حين قُضي على طغيان عبدالحميد، فبرزت قيادة الحركة العربية، وكانت الكثرة البالغة من زعمائها من المسلمين»[1]

التفسير العلمي لارتباط هذه النشأة بالمسيحيين:

ونود أخيراً أن نقدم تعليلاً لهذا السبق النصراني، إن صح التعبير، في نشأة الفكرة القومية، أو في تبنّيها والدعوة إليها.. ولكل ما يتصل بأسباب الرعاية التي أشار اليها صاحب كتاب «يقظة العرب».. نحاول أن نفسّر به هذا «الواقع التاريخي» الذي لم ينفرد جورج أنطونيوس بالحديث عنه[2] أو بالاشارة إليه، غير مغفلين بالطبع أثر النقل والاستعارة للنظم والأفكار الغربية، وأثر المدارس الأجنبية التي كانت تؤمها الأعداد الكبيرة، أو تغلب عليها هذه الأعداد من أبناء النصارى. أوبعبارة أدق: على النحو الذي لا يتعارض مع أثر هذا النقل والتأثر والاقتباس، بل بما يكمله ويعضده، ويضعه من ثم في موضعه الصحيح، فنقول:

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٨ .

(٢) راجع كتاب محاضرات في نشوء الفكرة القومية، تأليف: ساطع الحصري.

يأتي عصر القوميات عادةً في أعقاب عصر الامبراطوريات. . حين تضعف الروابط الامبراطورية أو تتراخى، أو حيث لا يعود في مقـدورهـا ـ لأسبـاب كثيرة ـ أن تبقى ممسكة أو متحكمة بسائر شعـوب الامبراطورية! عندئذٍ يصبح في مقدور هذه الشعوب أن تجـد ذاتهـا وتعبّـر عن نفسهـا من خلال «قوميتها» أو شخصيتها المتميزة. أو بعبـارة أخـرى: هذه الشعـوب التي تملك مقوماتها الخـاصة التي تفصلها عن جسم الامبراطورية، أو عن مركزها، والتي ما فتئت متمسكة بها ـ أي بهذه المقومات ـ محافظة عليها كطريق لتحقيق الحـرية والاستقلال! يجري الآن إحياؤها وبعثها والتأكيد عليها لإنجاز الوحدة والاستقلال.

ومعلوم أن أوروبـة دخلت في القرن التاسع عشر في عصر القوميات، في مواجهة، أو في أعقاب هذه الامبراطوريات التي كانت تحكم عدداً من الشعـوب والقوميات، أو التي توزع عليها العـديدُ من الشعوب والقوميات[1]. ولهذا جرى في أوروبة بعث جميع عوامل هذه القوميات وأسسها ومقوماتها؛ من لغة، وتاريخ، وتراث، ودين. . بل مذهب ديني في بعض الاحيان! وعلى سبيل

(١) كانت إمبراطورية النمسا تحكم بلاداً شاسعة تقطنها الأمم أو القوميات المختلفة التالية: ألمان، طليان، مجر، رومان، بولونيون، يوغسلاف، تشيك. وكانت السلطة العثمانية تضم في قسمها الأوروبي وحده ست قوميات: بلغار، يونان، ألبان، يوغسلاف، رومان، أتراك. وكانت روسيا تجمـع تحت حكمهـا قوميات أوروبية عديدة، أهمهـا: الفلنـديون، والبولونيون، والأوكرانيون.

المثال، فإن الأقاليم النصرانية التي كانت خاضعة للحكم العثماني في البلقان جرى فيها التأكيد على «الدين» بوصفه أحد أبرز المعالم أو الأسس القومية التي تميزهم عن العثمانيين وتفصلهم عنهم! جاء في كتاب عنوانه: «البلقانيون: تاريخ موجز لبلغارية والصّرب واليونان ورومانية وتركية» ألفّه جماعة من كبار المؤرخين، وطبعته جامعة اكسفورد: ما يلي: «وفي الشمال قام غرمانوس مطران بطراس بحشد الثوار في دير ماغاسبلايون، ثم رفع غطاء المذبح على أنه الراية القومية»[1].

والذي نراه هنا هو أن النصارى العرب الذين كانوا يعيشون في بلاد الشام، أو الذين خضعوا للحكم العثماني في هذه البلاد وسواها، كانوا يشعرون نحو هذا الحكم بمثل شعوب سكان البلقان من النصارى على سبيل المثال، أو بشعور قريب منه في غالب الأحوال! أي إن ارتباطهم بالدولة العثمانية كان أقرب ما يكون إلى ذلك النوع «الامبراطوري» الذي تحدّثنا عنه. ولم يشفع لهم انتماؤهم إلى الثقافة العربية الاسلامية، أو بعبارة أدق: لم ينهض بهم هذا الانتماء إلى درجة الشعور بالولاء (للنظام العثماني)، على الرغم من الحقوق التي كانوا يتمتعون بها في ظل هذا النظام. في حين أن شعور المسلمين العرب نحو الدولة

---

(١) ص ١٩٣ ـ ١٩٤ نقلاً عن كتاب تجديد التاريخ للأستاذ الدكتور عمر فروخ رحمه الله، ص ٢٦٩ . وانظر فيه نقولاً هامة أخرى عن الكتاب المذكور، وكتب أخرى.

العثمـانية وارتباطهم بها لم يكن على هذا النحو على الإطلاق، لأنهم كانوا يعدّون الدولة العثمانية دولتهم، ولا يعدّونها الدولة التي تحكمهم أو تتحكم فيهم! يقول الأستاذ الدكتور عمر فروخ رحمه الله: «لم يكن المسلمون في الامبراطورية العثمانية يشكون شيئاً يحملهم على النقمـة، فإن الـدولة العثمانية كانت دولة مسلمة، وبـذلـك كانت دولتهم. وإذا كانت الدولة العثمانية قد مرت في أواخـر أيامها بأحوال قاسية، فإن تلك الأحوال كانت خارجة عن سيطرة الـدولة العثمانية، وكانت قسوتها عامة في الترك والعرب، وفي المسلمين وغير المسلمين. ثم إن المسلمين كانوا يتحملون هذه الأحـوال القـاسية لأنهم (أو لأن أسـلافهم) كانوا قد تمتعوا بالأمجاد التي كانت للدولة العثمانية في تاريخها الطويل. ثم إن الدولة ليست في المغانم المادية فحسب، بل الدولة جوٌ روحي أيضاً يعيش فيه الفرد وتعيش فيه الجماعة على رضا واطمئنانٍ في حال الأمن، وعلى أمل بالرضا والاطمئنان المقبلين في حال البأس والشدّة. وليس الوطن وطناً إذا اطمأنت الحالُ فيه بالفرد، ثم يبطل أن يكون وطناً إذا قلقت فيه الأحوال! وكذلك ما كان للنصارى أن يشكـوا شيئـاً في الـدولة العثمانية لا في ايام الرخاء ولا في أيام الشدّة؛ ففي أيام الرخاء كانوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون من الحقوق، ثم يزيدون في أحيانٍ كثيرة، في الامتيازات، على المسلمين..»[1].

---

(١) تجديد التاريخ، ص ٢٨٢ .

نعود من هذا البيان، أو من هذا الاستطراد الذي لا بد منه، لنقول: إن النصارى العرب، أو طليعتهم المثقفة التي تلقّت معارفها في المعاهد المشار إليها، بمجرد أن شعروا بالأحوال القاسية التي تمرّ بها الدولة العثمانية، حتى إنها خاضت أكثر من خمسة عشر حرباً دولية في هذا القرن وحده كما ذكرنا، سارعوا إلى تبنّي الفكرة القومية، وتصدّروا للتبشير بها والدعوة إليها.. على الرغم من أنهم ـ كما قال د. فروخ رحمه الله ـ ما كانوا يشكون شيئاً من هذه الدولة، لا في أيام الرخاء ولا في أيام الشدّة. وتكفي الاشارة هنا ـ كذلك ـ إلى أن النصارى واليهود كانوا ملوك الاقتصاد والتجارة في الدولة العثمانية، إلى جانب تمتعهم بحماية فعّالة في ظل الامتيازات الأجنبية!

والأمر الهام هنا: هو أن اختيارهم للنموذج القومي الايطالي والألماني إنما كان لقيامه أو تركيزه على «اللغة» دون الدين، على الرغم من أن هذا النموذج في النطاق الأوروبي كان عاملاً موحّداً، فقد كان الألمان موزعين بين عشرات الدول والدويلات المستقلة، وكان الطليان موزعين على ثمان وحدات سياسية، في حين أنه كان في الحالة العثمانية، أو في نطاق: الرابطة الإسلامية/العثمانية، عاملاً مفرّقاً أو عامل تفككٍ وتمزيق! وغني عن البيان أنه لم يكن من الممكن ـ على سبيل المثال ـ اختيار نموذج حوض البلقان، السلافي، الذي اعتمد في انفصاله، أو استقلاله، عن الدولة العثمانية على كلٍ من الدين، واللغة، والاقليمية ـ أو النظرة

الاقليمية حتى نشأت فيه خمس دول ـ لأن هذا الاختيار لا يعد امتداداً للامتيازات الأجنبية أو ارتقاءً بها فحسب، بل يوحي كذلك بالرغبة في تمزيق العرب أنفسهم إلى دويلات. بالاضافة إلى أن النصارى كما هو معلوم أقلية دينية تعيش منذ مئات السنين في الوسط العربي الاسلامي، وليس لهم أقاليم خاصة أو معزولة يمكن بالتعويل على النموذج السلافي أن يحققوا لها الانفصال عن الدولة العثمانية!

ولو أنهم أثاروا مسألة الاعتماد على الدين في نطاق دعوتهم القومية، لما كان الأثر إلا عزلة في الوسط العربي الاسلامي في بلاد الشام، على الرغم من الأوضاع المتردية للدولة العثمانية.. في حين أن «القومية العربية» التي تبنّوها، والنموذج الأوروبي ـ اللغوي ـ الذي اختاروه، يفسح المجال أمامهم للتأثير في هذا الوسط، بل يسمح لهم، بعد انهيار الدولة العثمانية، أو بعد الانفصال عنها، ومن خلال مفاهيم الدولة القومية الجديدة.. باحتلال مواقع القيادة، ورسم ملامح المستقبل العربي على كل صعيد.

ثالثاً: القومية واقع وتاريخ

على الـرغـم من وحدة الأصل الإنساني التي قررتها الآيات القرآنية، فقد قضت حكمة الله تعالى بتقسيم بني آدم إلى شعوب وقبائل.. ثم بتوزيع هذه الشعوب والقبائل أمماً شتى وطرائق مختلفة.

ـ قال تعـالى في مطلع سورة النسـاء: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾.

ـ وقـال تعـالى: ﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[الآية ١٣ سورة الحجرات].

أما «الأمة» فقد وردت في القرآن الكريم بدلالات متعددة، منها جماعة المؤمنين عبر عصور التاريخ، قال تعالى: ﴿إنّ هذه أمتكم أمّةً واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[1][سورة الأنبياء: ٩٢] وأمة

---

(١) انـظر سياق الآية ـ وكـذلـك الآية ٥٢ من سورة المؤمنون ـ في النص القرآني.

المؤمنين بمحمد ﷺ، أو أمة المؤمنين الأخيره التي نهضت برسالة الاسلام، والتي خوطبت بقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾[سورة البقرة: ١٤٣] وقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس..﴾[سورة آل عمران ١١٠] والتي أشار إليها النبي ﷺ، أو نصّ عليها في الوثيقة الدستورية التي أعلنها غداة قيام دولة الاسلام في المدينة، بقوله: «هذا كتابٌ من محمد النبي الأمّي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس..».

فإذا تأملنا آيتي النساء والحجرات، من جهة. ثم قارنّا آية سورة الحجرات بهذه النصوص التي وردت في أمة المؤمنين، أو في الأمة الاسلامية، أمكننا أن نورد النقاط التالية:

١ ـ إن هذا التقسيم إلى شعوب وقبائل، أساسه أو الأصل فيه فيما يبدو اللغة أو اللسان، بالاضافة إلى الأصل الواحد. وربما كان أساسه الأعراق والسلالات، نظراً لجذوره الضاربة في أعماق التاريخ.. وربما لم يتأخر طويلاً عن خلق الانسان.. كما توحي بذلك آية الحجرات: «خلقناكم.. وجعلناكم» وإنْ كانت آية سورة النساء ربما أشارت إلى فاصلٍ زمنيٍ ما، لأن التعبير بها جاء بالرجال والنساء، وليس بالشعوب والقبائل.

وهذا ما دعانا في مطلع هذا البحث إلى ربط القومية بالأصل الواحد.. ومن هنا فيما يبدو جاء تعبير الدكتور فروخ رحمه الله

«العصبية الجنسية» إشارة إلى أن اللغة وحدها لا تكفي للدلالة على وحدة الأصل[1] وربما أمكننا القول: إن آية الحجرات أشارت إلى هذا التقسيم اللغوي العرقي إن صح التعبير، أو اللغوي المتجذّر عبر الأعراق والسلالات.

٢ ـ إن هذا التقسيم إلى شعوب متعددة، وقبائل شتى.. واقع وقائم ومستمر: «وجعلناكم».. وإذا نظرنا إلى التقسيم من طرف المقابلة بين الشعوب من جهة، والقبائل من جهة أخرى (شعب ـ قبيلة) فقد تحمل آية الحجرات إشارة إلى التمايز بين المجتمعات الانسانية من حيث طور التكوين الاجتماعي؛ إذا سلّمنا بأن الشعب أكثر تطوراً من القبيلة. وإن كان سياق الآية فيما يبدو لم يأت لتقرير هذا التمايز، ولكنه جاء لتقرير أغراضه وأهدافه في واقع الحياة الانسانية، أو في حياة الناس الذين خلقوا من نفسٍ واحدة.. لأن الآية ربطت هذا الجعل أو التقسيم إلى شعوب وقبائل بقوله تعالى: «لتعارفوا» أي إن الله سبحانه وتعالى لم ينوع بين الشعوب والقبائل، ولم يميز بعضها على بعض بميزات عقلية أو

---

(١) فالأرمن على سبيل المثال ـ وكما يقول د. فروخ ـ يتكلمون إلى جانب لغتهم: اللغة التركية أو الروسية أو العربية أو الانجليزية، بحسب تشردهم في الأرض. وكان أديب إسحق أحد بلغاء العرب في العصر الحديث، ولكنه وقومه الأرمن ليسوا عرباً ولا روسيين ولا أتراكاً، بل هم أعداء الأتراك. ثم إن في شعوب إفريقية وآسية شعوباً لا يتكلم أهلها إلا اللغة الانجليزية أو اللغة الفرنسية، ومع ذلك فهم ليسوا إنجليزاً ولا فرنسيين!

أدبية أو عملية أو صناعية. . إلا لتكمل الانسانية بعضها بعضاً ـ تأكيداً للأصل الواحد! ـ لا ليفخر بعضها بذلك على بعض، لأن الفخر بمثل هذه الأمور الفطرية أو الخلْقية ـ كالجنس أو اللون ـ أقرب إلى مراحل الطفولة أو المراهقة التي يجب على البشرية أن تتجاوزها، أو كان عليها أن تتجاوزها من حين نزلت هذه الآية (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) لأن الآية الكريمة تشير بعد ذلك إلى ميزان التفاضل الحقيقي، وأنه ينبع من الأعمال الكسبية، ومن الارادة الحرة، والعزيمة النافذة! التي هي في متناول جميع الشعوب والأقوام؛ قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ أي إن ميزان التفاضل لا ينبع من تلك الخصائص التي امتاز بها شعب من الشعوب أو قبيلة من القبائل. . لأن ذلك التفاضل أريد به التأكيد على وحدة المجتمع الانساني وتعارفه، لا تناكره واختلافه! كما أن لكل فضيلة ضريبتها الخاصة. . لأن المزايا الانسانية تكليف وأعباء لا متع وأزياء! ولهذا خوطب النبي ﷺ، وقد بُعث عليه الصلاة والسلام من «العرب» ونزل القرآن بلغتهم. . بقوله تعالى: ﴿وإنّه لذِكرٌ لك ولقومك وسوف تُسألون﴾ لأن دور العرب في القرآن الكريم وقد أطلّوا به على العالم رسالة إنسانية ورحمة للعالمين دور التبليغ والجهاد والهداية، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور. . بل دورهم فيه، مع المزايا التي خُصّوا بها، دور التكليف الأشدّ والجهاد الأفضل.

٣ ـ إن هذا التقسيم إلى شعوب وقبائل ليس هو الأصل في

مفهوم الأمة . . أو ليس هو الأصل الثابت . . بمعنى أنه ليس من الضروري أن يطابق مفهوم الشعب أو القبيلة ـ أو القومية ـ مفهوم الأمة . . على الدوام! وإذا وجد مثل هذا التطابق بين المفهومين في بعض مراحل التاريخ ، فليس من اللازم أن يبقى هذا التطابق على الدوام . ويمكن القول في هذا السياق إن رسالات جميع الأنبياء السابقين التي كانت موجهة إلى «أقوامهم» حيث كان نداء كل نبي منهم أو شعاره «يا قوم» . . كانت رسالات قومية بهذا لمعنى . . فإذا ذكرنا أن الله سبحانه لم يبعث رسولاً إلا بلسان قومه . . أدركنا المكانة التي تحتلها «اللغة» في بناء القومية ، أو في التقسيم القرآني السابق إلى شعوب وقبائل . أما في نطاق حديثنا هنا عن العروبة والاسلام ، أو عن رابطة القومية العربية ، ورابطة العقيدة الاسلامية . . فإن مفهوم الأمة اتسع ليشمل جميع المؤمنين ، أو جميع الداخلين في الاسلام من جميع الشعوب والأقوام ، أو القوميات . ومعلوم أن خطاب النبي ﷺ كان موزعاً بين (يا أيها الناس) و (يا أيها الذين آمنوا) لأن النبي ﷺ بعث للناس كافّة . . فالنداء الأول دعوة إلى الايمان ، والنداء الثاني دعوة إلى التكليف ، والنهوض بتبعاته في مجتمع المؤمنين وفي «أمتهم» ودولتهم . ولم يأت الخطاب ب «يا قوم» على لسان محمد ﷺ مرة واحدة في الكتاب العزيز .

هذه الأمة التي خوطبت بنداء التكليف ، هي التي وصفها الله تعالى بأنها الأمة الوسط ، وجاء التعبير القرآني ـ المعجز ـ عن هذا

الوصف بقوله تعالى «جعلناكم» أي بالفعل ذاته المستعمل في تقسيم (الناس) إلى شعوب وقبائل في آية الحجرات. قال تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً). وهي كذلك الأمة التي وصفها الله تعالى بأنها (خير أمّة أُخرجت للناس). وهي الأمة الاسلامية التي يلتقي أبناؤها على وحدة العقيدة والايمان، وعلى أخوّة الإيمان والاعتقاد.. وليس على وحدة الأصل والنسب، أو اللغة والعرق.

ومعلوم أن هذه الأمة كانت قاعدتها الأولى من العرب.. ولكن هؤلاء العرب خرج منهم أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، وأخوه العاص، وأبو لهب بن عبدالعزّى، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وأمية بن خلف.. وجميع من لم يدخل من العرب في الاسلام.. قاصيهم ودانيهم، سُوقتهم وأصحاب الشأن في ذلك سواء! في الوقت الذي انضم إلى هذه الأمة في وقت مبكّر سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، وغيرهم.

وغني عن البيان أن هذا المفهوم العقائدي أو العقدي للأمة الاسلامية لا يلغي الانتماء القومي أو القبلي ولا يعدو عليه، بوصف هذا الانتماء من أوضاع الخلق والتكوين؛ فسوف يبقى الناس ينقسمون إلى عرب وفرس وأتراك.. إلخ، بل لا يؤثمه أو يحرّمه ما دام هذا الانتماء لا يعدو على الأخوة الإسلامية، أو يناقض مفهوم أمة الاسلام الواحدة. وفي هذا يقول د. كمال أبو المجد: «إن الاسلام بنصوصه ومبادئه لا يستبعد الولاء القومي ولا يؤثمه ما

دام ذلك الولاء لا ينتزع المسلم من أخوته الاسلامية، ومن ولائه الأول لأمة المسلمين.. ذلك أن تعاطف الفرد مع قومه، وارتباطه الوجداني بوطنه أمرٌ فطريّ لا يرد عليه حكم تكليفي»[1].

٤ ـ وها هنا ملاحظة تحتاج إلى بيان، وهي أن دعاة الفكر القومي خلطوا بين مفهومي الأمة والقومية، أو سوّوا بينهما على الدوام على أقل تقدير، فتحدثوا مطولاً عن عوامل تشكيل الأمم. كالأرض، والدم أو العرق، والاقتصاد، والمصالح المشتركة.. وركزوا من بين هذه العوامل على كلٍ من اللغة والتاريخ.. في الوقت الذي كان حديثهم في الواقع منصباً على عوامل تشكيل القوميات.

ويعود السبب في هذه التسوية، أو هذا الخلط إلى غفلتهم عن أثر التطور في العوامل المكوّنه للأمم! بمعنى أن عوامل نشأة الأمم ليس من الضروري أن تبقى واحدةً في جميع العصور.. ويدلنا الاستقراء التاريخي على أنها لم تكن كذلك بالفعل. وقد أشرنا قبل قليل إلى وحدة العقيدة والدين، والفكر والثقافة التي أقام عليها الاسلام وحدته أو «أمّته» في التاريخ.

وإذا أردنا أن نرصد اتجاه التطور في حركة هذه العوامل.. للاحظنا أن الروابط المادية تُخلي مكانها عصراً بعد عصر للروابط والعوامل المعنوية الثقافية والفكرية.. الأمر الذي

---

(١) جريدة القبس الكويتية، ص ١١ العدد رقم ٦٠٠٩ تاريخ ٢/٢/١٩٨٩ .

دعا إليه الاسلام في عصر مبكر، والذي يؤوب إليه الناس اليوم في أعقـاب عصـر القـوميات الأوروبي . . وبعـد ارتقـائهم في سلّم الحضارة الانسانية.

وفي هذا يقول أستاذنا محمد المبارك رحمه الله ـ بعد أن عرّف «الأمـة» ـ بأنهـا الـوحدة الاجتماعية المنسجمة أو المشتركة في أسسها الفكرية وعواطفها واتجاهاتهاـ: «إن الأمة ليست كياناً ثابتاً جامداً، بل هي متطورة. فقد مرت بمرحلة كانت الأمة فيها قبيلة، ثم كانت مرحلة أخـرى غدت فيهـا الأمـة قومـاً أو قومية. وتتجه البشـرية إلى تكـوين أمم من نوع جديد، وهي التي تنصهر فيها مجموعة من الشعوب في إطار واحد تنظمها فكرة عقائدية واحدة، ونظم تشريعية واجتماعية واحدة، بل يكون لها تنظيم سياسي موحد»[1].

وحتى لو نظرنا إلى فكرة التطور هذه، بعيداً عن المصطلحات والتعـريفـات، فإن شعور الجماعة بكيانها، أو وعيها الذاتي يمر بهذه المراحل، فيكون قبلياً في أول مراحله، ثم يكون قومياً إذا شمل قومية كاملة، ثم يكون عقائدياً قد يشمل عدة قوميات تربطها روابط عقيدة شاملة. . كالمجتمع الليبرالي الغربي، أو كالمجتمع الاسلامي.

---

(١) المجتمـع الاسـلامي المعـاصـر، ص ٣٣ دار الفكر بدمشق، الطبعة الخامسة ١٩٨٠.

ويلاحظ الأستاذ المبارك رحمه الله، أننا لو رجعنا إلى التاريخ لتجلّى لنا أن الشعوب الإسلامية كانت تؤلف في فترة من تاريخها أمة واحدة، وذلك في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية. وبعبارة أدق يقول أستاذنا رحمه الله: «إن الشعوب الإسلامية كانت تؤلّف أمة بالمعنى التام خلال عدد من القرون التي أعقبت ظهور الإسلام، فقد امتزجت الشعوب الإسلامية في مجال العلم والسياسة والإدارة والاقتصاد والمواصلات وسائر مجالات الحياة امتزاجاً عجيباً، وكان الشعور بالانتماء إلى الوطن الإسلامي والثقافة الإسلامية أقوى بكثير من شعور الانتماء إلى البلد والقومية، فنجد في الفقهاء والمحدّثين، وفي الأطباء والفلاسفة، وفي الحكام والقضاة: العربي والهندي والفارسي والكردي والتركستاني البخاري، ملتقين على صعيد الثقافة الإسلامية والعقيدة الإسلامية، والمفاهيم والعادات الإسلامية».

والذي نضيفه هنا هو أن وحدة الأمة الإسلامية بقيت قائمة أو مقررة حتى في العصر الذي شهد توزع هذه الأمة على عدة دول أو كيانات سياسية! لأن تعدد الدول لم يلغ أو لم يناقض وحدة الأمة! لأن ثقافتها وفلسفتها التربوية والتعليمية، والشريعة التي تحكمها كانت - أو بقيت - واحدة! ولأن حركة انتقال العلماء والصنّاع وأصحاب المهن والفنون المختلفة، فضلاً عن سائر الناس، بقيت مكفولة على الدّوام، وفي هذا يقول الأستاذ العلّامة «آدم متز» - صاحب كتاب عصر النهضة في الإسلام -: إن المسلم كان ينتقل من بلد إسلامي إلى بلدٍ إسلامي آخر ولو اختلفت الدولتان بسهولة أكثر بكثير مما كان يجده الألماني في القرن الثامن عشر للميلاد في الانتقال من مقاطعة ألمانية إلى مقاطعة أخرى.

رابعاً: مقومات القومية: عرض ومناقشة

على الرغم من هذا الخطأ أو الخلط الذي وقع فيه دعاة الفكر القومي، فضلاً عن التجاوزات الحادّة التي سنخصص لها الفقرة التالية، فإننا نقبل هنا بالطرح الذي قدموه حول عوامل تشكيل الأمم ـ أو القوميات! ـ لنثبت من خلال التحليل العلمي لهذه العوامل، أنها سوف تعود بنا مرة أخرى إلى وحدة الفكر والاعتقاد، وأنها كما ذكرنا في مطلع هذا البحث لا تناقض أخوة الإيمان التي عقدها الله تعالى بين جميع المسلمين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، أو بين جميع الشعوب الإسلامية على اختلاف قومياتها وأعراقها!

لقد وقف دعاة القومية العربية عند عاملي اللغة والتاريخ بوجه خاص، ونازع معظمهم في أثر سائر العوامل الأخرى. وفي هذا يقول ساطع الحصري: «إن أسّ الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو وحدة اللغة ووحدة التاريخ. لأن الوحدة في هذين الميدانين، هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة، وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى.» ويضيف قائلاً: «ولكن لا الدين، ولا الدولة، ولا الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية» ثم يقول: «وإذا أردنا أن نعيّن عمل كلٍ من اللغة والتاريخ في تكوين الأمة قلنا: اللغة تكوّن روح الأمة

وحياتها. التاريخ يكوّن ذاكرة الأمة وشعورها»[1].

ونحن بدورنا نقف عند هذين العاملين، لبيان أنهما لا يفصلان الشعب العربي عن سائر الشعوب الاسلامية.

١ـ وحدة اللغة: إن الشعوب الاسلامية ـ غير العربية ـ ليست خارج إطار هذه الوحدة اللغوية، لأن هذه الوحدة إنما تتمثل ـ بحسب عبارة الأستاذ الحصري نفسه ـ «في وحدة المشاعر والمنازع.. ووحدة الثقافة» أو باختصار: في وحدة الثقافة، أو في الثقافة الواحدة التي تعبّر عنها هذه اللغة.. بوصف اللغة وعاء للفكر والحضارة والتراث والتاريخ.. واللغة العربية بهذا الاعتبار وعاء للفكر والحضارة الاسلامية منذ بعثة النبي ﷺ انطلاقاً من مصدري الثقافة العربية الاسلامية الخالدين (الكتاب والسنّة) مروراً بعد ذلك بكل ما دوّن بهذه اللغة في التفسير والتاريخ، والتراجم، والأدب، والفلسفة، والفن.. إلخ. ولهذا فإن ما يدعى الآن بـ «الثقافة القومية» ـ بحسب عبارتهم ـ هو ما دوّن بالعربية في ظلال الاسلام! والشعوب الاسلامية ـ غير العربية ـ لا تختلف معنا في مضمون هذه الثقافة، وإن اختلفت في بعض الأحيان في أداة التعبير عنها!

وهذا التعبير الذي جاء عبر لغات تركت العربية أثرها فيها، أو

---

(١) ما هي القومية لساطع الحصري، ص ٢١٠ نشر مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٥ بيروت

شاركت لغة القرآن في صنعها أو استحداثها بين ظهرانيهم ـ حتى باتت تدعى لغـات إسلامية ـ ليس فيه خروج عن وحـدة الثقافة المشار إليها ولا تهديد لها! وربما كان ارتباط هذه الشعوب بالثقافة العربية الاسلامية يفوق ارتباط الكثير من أبناء الدعوة القومية العرب أنفسهم، وأعني بهم أولئك الذين أخذوا بسبب من العلمانية والتغريب!

وفي وسعنا أن نلاحظ أن اللغة العربية ليست مجهولة الأهمية أو المكانة لدى هذه الشعوب، وبخاصة أنها لغة القرآن والاسلام، وأن تعلمهـا من الدين كما قال علماؤنا القدامى، قال ابن تيمية رحمه الله: «فإن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغاً عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلّمين به؛ لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان. وصارت معرفته من الدين، وصار اعتياد التكلم به أسهـل على أهل الدين في معرفة دين الله، وأقرب إلى إقامة شعـائـر الـدين، وأقـرب إلى مشـابهتهم للسـابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في جميع أمورهم»[1]

وعلينا أن نذكر هنا أن التعريب كان لهذا جزءاً لا يتجزأ من رسالة الاسلام، وأن تخلف هذه الحركة عن انتشار الاسلام بعد المد الاسلامي الأول، كان لأسباب عارضة.

يقول الأستاذ ساطع الحصري: إنه يجب «أن لا يغرب عن البال أن العرب قبل الاسلام كانوا قليلين، كما أن مواطنهم كانت محـدودة نسبياً، فإن البـلاد التي تستحق النعت بالعربية، كانت منحصـرة في الجـزيرة العربية، وبحافات بعض البلاد المجاورة لها، وأما حدود العروبة إلى سائر أنحاء العالم العربي الحالي فقد تم بفضل الفتوحات العربية التي سارت تحت راية الاسلام».

«فـإن معـظم أقسـام العـراق والشام، وجميع أنحاء إفريقية الشمـالية ـ من مصر والسودان إلى المغرب الأقصى ـ كانت غير عربية، ولـم تستعرب إلا بعد الاسلام».

وليس معنى ذلـك أن العرب بقوا منطوين على أنفسهم في جزيرتهم على كر الأزمان، بل إنهم كانوا ينزحون من الجزيرة إلى البلاد المجاورة، إلا أن قبائلهـم التي نزحت قبل حمل رسالة القرآن «كانت تفقد صلاتها مع موطنها الأصلي، وتتعرض إلى سلسلة من الأحـداث والتطورات التي تنسيها ماضيها، وتؤدي إلى اندماجها بسكان البلاد التي تستوطنها».

ويقـول: «ولكن المـوجـة البشرية التي تدفقت من الجزيرة العربية عند ظهور الاسلام قد امتازت عن سابقاتها من هذه الوجوه امتيازاً هاماً جداً، إنها لـم تفقد صلتها بمنبعها الأصلي، بل ظلت وثيقـة الاتصـال به من الـوجهتين المادية والمعنوية، وفضلاً عن ذلك: استطاعت أن تنشر لغتها في مواطنها الجديدة، وانتهت إلى

تعريب سكان أقطار واسعة من البلاد المفتوحة تعريباً تاماً».

قلت: وإن من أهم الأمور التي يجب اعتبارها في هذا الموطن أن القرآن الكريم قد تُعبّد المسلمون بتلاوته بألفاظه وحروفه، لأن التحدي بالقرآن ـ في قضية الإعجاز ـ قد وقع بلفظه ومعناه، ولهذا لم يكن القارىء لترجمته قارئاً للقرآن، وعلى هذا: لا يترتب على تلاوته هذه أي أثر من آثار الثواب الذي وعد به النبي ﷺ قارىء القرآن، وهو أن له بكل حرف عشر حسنات ـ كما جاء في الحديث ـ قال النبي ﷺ «لا أقول (الم)، حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»، ومعنى ذلك أننا نملك معادلتين اثنتين، تنص الأولى على ثواب قارىء القرآن وتحضّ المسلمين ـ كل المسلمين ـ على تلاوته وتدبره. وتنص الثانية على أن الترجمة لا تعتبر قرآناً، كما أجمع على ذلك العلماء في جميع العصور. وبهذا يغدو التعريب بالقرآن وتحت رايته جزءاً لا يتجزأ من رسالة الاسلام.

أما تخلّف حركة التعريب عن انتشار الاسلام في بعض المواطن فإن لها أسباباً تاريخية وموضوعية لا مجال هنا للافاضة في الحديث عنها، ولكن في وسعنا أن نشير إلى أن انتشار الاسلام الذي تم في جزائر الهند الشرقية ووصل إلى أقاصي أندونيسيا قد تم بجهود أفراد من التجار الذين كانوا يرحلون من جنوب الجزيرة العربية بحراً بالسفن الشراعية، وإن هؤلاء مع بعض الدعاة القلائل كانوا قادرين على دعوة الناس إلى الاسلام بعملهم وقولهم،

ولكنهم لم يكونوا يملكون القدرة على تحويل الناس عن لغة معاملتهم وخطابهم . . . هذا بالاضافة إلى ما تم في هذه البلاد ـ مثلاً ـ من تعريب شامل في معاهد العلم الديني والدراسات الاسلامية بعد ذلك.

كما أن انتشار الاسلام في بعض المراحل تم على أيدي المغول وعلى أيدي السلجوقيين والعثمانيين، بعيد حملهم لرسالة القرآن، وقبل أن يتعلموا هم لسانه العربي المبين!

أما البلاد التي دخلها القرآن في زمن الفتوح الأولى، فإن اللغة العربية لم تنحسر عنها، والمثال الرئيس هنا هو بلاد فارس، إلا بعد بضعة قرون على التحقيق، وبعد الحركات الشعوبية والانفصالية التي قادها حكام طامحون وقاوموا في تيارها ما يستطيعون مقاومته من عوامل الأسلمة والاستعراب . . . على أن التعبير هنا بالانحسار لا يبدو أنه تعبير دقيق، فإن هذا لم يتم حتى في عصور الاستعمار الحديث!

يقول طه حسين: «وما كاد العرب بعد الفتوح يدخلون في بلاد فارس ويستقرون فيها حتى تعلم الفرس هذه اللغة الجديدة، وغلبت على ألسنة كثير منهم وأقلامهم، وما أكثر الفرس الذين شاركوا في إنشاء علوم اللغة العربية وتدوينها، وما أكثر الفرس الذين استأثروا ببعض هذه العلوم حتى أصبحوا كأنهم أصحابها، وكلنا يعلم أيضاً استئثار الفرس بتدوين علوم البلاغة العربية».

ويقـول الدكتور طه أيضاً: «ومع أن الفرس قد أحبوا لغتهم الفـارسية ونظموا فيها الشعر منذ أواسط القرن الرابع للهجرة فقد ظلت اللغة العربية لغة العلم والفلسفة عندهم إلى أواخر القرون الوسطى، وانظر إلى كتب ابن سينا والتفتازاني والسيد الجرجاني والطوسي وغيرهم. وكل هذا بفضل القرآن الكريم، فبفضله انتشر الإسلام»[1].

والـذي نراه ـ بهـذه المناسبة ـ في أمر اللغات الكثيرة التي تتخاطب بها الشعوب الاسلامية اليوم، أنها لا تشكل خطورة على الثقـافة العربية الاسلامية ولغة القرآن ـ بين ظهرانيهم ـ إلا حين تنتقـل من كونهـا أداة للخـطاب في السوق والحياة اليومية، الى جعلها «لغات قومية» لها أدبها وحضارتها وتاريخها الذي يفصلها عن أدب العـربية وحضارتها وتاريخها. أما أن تبقى هذه اللغات أقـرب إلى اللهجات أو أقرب إلى العامية المختلفة المنتشرة في البلاد العربية ذاتها، ليست ذات مدلول حضاري وثقافي خاص، أو مغاير لمدلول لغة القرآن. . . فذلك ليس فيه خطورة على وضع الشعـوب الاسـلامية بوصفهـا المجال الحيوي والطبيعي ومنطقة انتشار اللسان العربي في العـالم، أوبوصفها البلاد التي تلتقي مع البلاد العربية في دائرة الحضارة الاسلامية، وهذا الموضوع على كل حال جدير بأن يفرد بالبحث.

---

(١) من مقـدمـة الـدكتور طه حسين لكتاب: القرآن الكريم واللغة العربية. للشيخ احمد حسن الباقوري. ط: دار المعارف بمصر.

ولا يحسن إنهاء هذا الحديث الموجز عن حركة التعريب التي تمت في ظلال الاسلام، وتحت راية القرآن الكريم، قبل الاشارة إلى أنه لا يصح تفسير هذا المد الهائل الذي أصابته اللغة العربية بغير عوامل جلال القرآن ورسالته، وعامل حب هذه اللغة وتفضيلها على اللغات المحلية الخاصة السابقة لدخول أصحابها في الاسلام، ولهذا فإن من فساد الرأي ما ذهب إليه بعض المغرضين من أن اللغة العربية اعتمدت في انتشارها على السلطة الحاكمة، أو السلطة الغازية، لأن هذه المنطقة غزيت قبل الاسلام وأيدت لغة الغازي بالسلطة السياسية، لكن الشعوب المغلوبة رفضتها متشبثة بتراثها ولغتها، وبقيت متشبثة بها حتى دخول الاسلام، ثم تم هذا التخلي بعد ذلك في ظل القرآن، وغير بعيد في الوقت نفسه عن قوانين علم الاجتماع، تقول الأستاذة الفاضلة الدكتورة عائشة عبدالرحمن:

«ولم يكن موقف الشعوب من لغة القرآن أن فرطت في ألسنتها فجأة، أو أكرهت على التخلي عنها بحد السيف، كما ذهب المؤرخ فيليب حتي في تاريخه الكبير ولا صدرت قوانين ملزمة به من الدولة، وإنما مر الصراع اللغوي في مراحله الطبيعية التي تحكمها سنن الاجتماع، فبدأ بمرحلة عزله تفاوتت بين قطر وآخر باختلاف طبيعة الاقليم قرباً وبعداً، وميراثه الفكري والحضاري، ومسلكه الصوتي واللغوي. . .»[1] ثم تقرر أن هذه «المرحلة

---

(١) كتاب: لغتنا والحياة. وانظر فيه بحثاً قيماً عن التعريب الذي تم تحت راية القرآن الكريم.

اللغوية لم تطل، والقرآن الكريم هناك يفتح للعربية قلوب من أسلموا».

وتقول في التعقيب على انتصار العربية على اللغات الأجنبية المفروضة على المنطقة ـ الرومانية واليونانية والفارسية والبيزنطية ـ ثم في مواجهتها للغات الوطنية:

«وكان من المتصور أن تجمع هذه الشعوب بين العربية لغةَ دينٍ، وبين لغاتها القومية التي صانتها طويلاً ضد الغزو، لغة حياة، ولكن لم يمض جيل أو جيلان حتى كانت العربية اللسان المشترك لشعوب أمة واحدة، هجرت إليها ألسنتها القومية دون أن يجبرها أحد على ذلك، كما لم يكرهها مكره على أن تتخلى عن عقائدها وأديانها لتعتنق الاسلام، بل تركت لغة العرب تخوض معركتها مع لغات الشعوب الداخلة في الاسلام»[1].

وفي جميع الأحوال، فإن اللغة العربية بوصفها لغة الثقافة الاسلامية والحضارة الاسلامية، حطمت حاجز الأجناس والسلالات، كما تجاوزت حاجز اللسان واللغات! حتى استأثر الفرس بتدوين علوم البلاغة العربية! بحسب عبارة الدكتور طه حسين رحمه الله، كما أن معظم القرّاء و «رواتهم» كانوا من الأعاجم، أو من أصل أعجمي، مع الاشارة إلى دلالة القراءات القرآنية على المزايا والقضايا الصوتية واللغوية والنحوية في اللسان العربي. ويكفينا تذكر «سيبويه» إمام النحو، وشيخ العربية! لقد

(١) المصدر السابق.

انتظمت الثقافة الاسلامية عباقرة من جميع الشعوب، بحيث يصعب علينا الآن أن ننسب «تراث» هذه الثقافة إلى شعب أو قبيلة بعينها، أو إلى جنس من الأجناس بعينه.. وكذلك صار من الصعب علينا أيضاً أن نميّز «اللسان» الخاص بهؤلاء العباقرة والعلماء والأفذاذ، وقد عبّروا جميعاً عن هذه الثقافة بلغة كتابها الكريم.. القرآن.. بغض النظر عن شعوبهم وقبائلهم «بل باتوا يتغنّون بشرف هذه اللغة، وبأنها أرقى اللغات»[1] انطلاقاً من الشرف والخلود اللذين اضفاهما عليها القرآن الكريم حين نزل بها في خاتمة الرسالات، وحين تكفل الله تعالى بحفظه: (إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون).

هل نقول بهذه المناسبة إن عودة اللغة العربية اليوم إلى هذا المقام مرة أخرى مرهون بالدعوة الإسلامية، وليس بالدعوة القومية؟ نعود فنقول: لقد خرج الإسلام باللغة العربية إلى دائرة ومحيط أوسع من الدائرة العربية ومحيطها.. فأضحت لغة عالمية لساناً وفكراً، ومصطلحات ومضامين! وبهذا لم تعد ملكاً للعرب وحدهم! بل إنهم لو أرادوا ذلك لما استطاعوا!! ولهذا فإن الطرح القومي الذي يفرّق بين العربية والاسلامية «نظراً لوجود عرب غير مسلمين، ومسلمين غير عرب» ـ بحسب عبارة ساطع الحصري ـ لم يعد وارداً، بل ليس بصحيح، لأنه يمثل نظرة سطحية وتناقضاً

---

(١) من بحث لأستاذنا الدكتور يوسف العش رحمه الله، منشور في مجلة حضارة الاسلام، ص ٤٧ شوّال ١٣٨٠هـ دمشق.

مع وحدة الثقافة التي تحدث عنها هو نفسه وسائر أصحاب الفكر القومي .

ونضيف أخيراً أن بعضهم حاول أن يعود بهذا الاتساع الذي أصابته العربية في ظل الاسلام إلى العربية ذاتها، فجعلها من قوميتها أو من صورها القومية عبر التاريخ . أو بعبارة أخرى : حاول أن يعود بالدائرة الاسلامية إلى الدائرة العربية، بدعوى أن العربية «لسان» هذه الدائرة الاسلامية! وهكذا تصبح جميع إنجازات الحضارة الاسلامية إنجازات عربية، وتصبح القومية العربية ضاربة الجذور في أعماق التاريخ . . فالحضارة حضارتها، والعظماء والقادة والمفكرون عظماؤها ومفكّروها . . . حتى إذا تم هذا القلب للأوضاع والحقائق، وفُصمت ـ في الوهم وفي الصفحات والأوراق! ـ هذه الدائرة القومية عن الاسلام والثقافة الاسلامية . . رُبطت بعجلة ثقافات أخرى مستوردة من الشرق أو الغرب، حتى وُضعت الكتب والمناهج فيما سمّي «الثقافة القومية الاشتراكية» وكأن الاشتراكية هي الدائرة التي تلي الدائرة (القومية) ـ العربية طبعاً ـ وتتصل بها، وليس الاسلام أو الدائرة الاسلامية! وأعجب ما في هذه الثقافات المستوردة أنها إقليمية المنزع والهدف وظروف النشأة، كما سنوضح ذلك في مبحث العلمانية القادم .

٢ ـ وحدة التاريخ : يمثل هذا العامل في الطرح القومي، كما أشرنا قبل قليل، «ذاكرة الأمة وشعورها» . ولا خلاف على أن تشكيل هذه الذاكرة المشتركة والشعور الواحد، إنما يتم من خلال

الوقوف أمام أحداث التاريخ ووقائعه، ومنجزاته وإحباطاته! حيث يشعر كل جيل من الأجيال بالاعتزاز والافتخار والزهو والانتماء أمام عصور الازدهار والتقدم، وأمام الانتصارات والبطولات والإنجازات التي حققها الآباء والأجداد، أو حققتها الأجيال السابقة في جميع ميادين الحياة! كما يشعر بالانكسار والألم أمام عصور الركود والانحطاط، والفرقة والانقسام.. وأمام الهزائم والانتكاسات وانطفاء الفاعلية والتأثير!... فيتولد من ذلك جميعه آلام وآمال واحدة.. وذاكرة واحدة وشعور واحد.

والسؤال الآن: كيف يفعل التاريخ فعله هذا في إذكاء الشعور؟ هل يفعل ذلك على نحو آلي! أي بمجرد مرور أحداثه ووقائعه بين الآباء والأجداد أو على الآباء والأجداد؟ أو بعبارة أخرى: هل يكفي ذلك لتوليد الشعور المشترك والذاكرة الواحدة بالألم والأمل؟ أم إن هذا الشعور في الحقيقة وليد النظرة الواحدة لأحداثه، والتفسير الواحد أو المتفق لوقائعه؟ بحيث إذا اختلف هذا التفسير، وتعددت تلك النظرة. انقلب التاريخ إلى عامل تفرق وتمزيق. فلم تعد هنالك ذاكرة واحدة أو شعور مشترك.. بل شعوران متناقضان.. أو اختلاف يؤدي إلى القطيعة والانقسام؟

يرى أستاذنا محمد المبارك رحمه الله، الذي قدّم نحواً من هذه التساؤلات، أن التاريخ لا يفعل فعله المشار إليه إلا في الحالة الثانية حين تتحد النظرة، ولا يتناقص التفسير! وغني عن البيان أن هذه النظرة وليدة الفكر الواحد والعقيدة المشتركة. وهكذا نجد

أنفسنا أمام تاريخ واحد للمسلمين، أو للأمة الاسلامية. . لا مجال فيه لقطع تاريخ العرب ـ من خلال التوهم القومي السابق ـ عن تاريخ الشعوب الاسلامية الأخرى، لأن عقيدتهم الاسلامية الواحدة، وثقافتهم المشتركة جعلتهم يقرؤون التاريخ قراءة مشتركة، وينظرون إلى أحداثه نظرة واحدة. . ويتعاطفون مع أبطاله، ويقدّرون صانعيه على نحو واحد، أو مشترك.

وأبرز ما يجب الاشارة اليه من آثار هذه النظرة الواحدة: اشتراكهم جميعاً في الانتماء إلى التاريخ الاسلامي الذي يبدأ منذ دخول أسلافهم في الاسلام. . بل يمتد إلى تاريخ الاسلام نفسه، أي إلى لحظة ظهور الاسلام وبعثة النبي ﷺ في جزيرة العرب، وما كان من أمر سيرته الشريفة وحياته مع قومه. في حين ينظرون إلى التاريخ السابق على دخولهم في الاسلام على أنه «تاريخ جاهلي» أو تاريخ آبائهم الجاهليين. . الذي لا يعتزون بالانتماء إليه، ولا يثير فيهم آلاماً أو آمالاً، أو روحاً قومية مناقضة أو مفرقة.

أي إن موقفهم من تاريخ قومهم أو «تاريخهم القومي» يماثل موقف العرب المسلمين من هذا التاريخ! بل لعل انتماء الشعوب الاسلامية ـ غير العربية ـ إلى التاريخ العربي الاسلامي، أو تاريخ الأمة الاسلامية، وارتباطها به، أن يكون أوثق وآكد في بعض الأحيان. . إذا ذكرنا الحاجز الذي عبرته هذه الشعوب حتى ارتبطت بهذا التاريخ، والمتمثل في الهزيمة التي لحقت بالأسلاف أمام جحافل العرب المسلمين عندما فتحت بلادهم! إن المسلم

الهندي أو الفارسي الذي يفرح لانحدار أجداده أمام هذه الجحافل لأن هذا الانحدار هيّأ له فرصة الهداية إلى هذا الدين ـ ولو انتصر أجداده أو قومه لربما بقي على جاهليته ـ ارتبط مع العرب في التاريخ، كما التقى معهم من قبل في لغة القرآن. يقول العلاّمة مسعود الندوي، كبير علماء شبه القارة الهندية: «وإذا كنا نأسف على شيء، فإنما نأسف على أن بلادنا لم تتشرف بأقدام الفاتحين الأوائل من الصحابة»![1]

لا مجال إذن لفصم عرى التاريخ العربي عن التاريخ الاسلامي.. حتى من خلال الفكرة القومية والطرح القومي السابق، كما وجدنا أنه لا مجال ـ من خلال هذه الطرح نفسه ـ لفصم اللغة العربية عن الثقافة الاسلامية.. أو العكس نظراً للارتباط المصيري والنهائي القائم بينهما من خلال القرآن الكريم، عماد اللغة العربية، وحافظها، وأساس الثقافة الاسلامية وعمادها في الوقت نفسه، وكما شرحناه وحلّلناه قبل قليل.

إن المقص السحري الذي حاول بعض أصحاب الفكر القومي أن يمرّوا به على التاريخ العربي الاسلامي وعلى الثقافة العربية الاسلامية.. لم ينجح من فصم العربيّ عن الاسلامي.. أو في فصم العلاقة الدائمة بين العروبة والاسلام.

---

(١) تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند، طبع دمشق.

والخلاصة: أن هذين العاملين ـ اللغة والتاريخ ـ إنما يفعلان فعلهما، ويحدثان أثرهما في بوتقة العقيدة، أو من خلال الثقافة المشتركة والفكر الواحد، والنظرة الواحدة إلى الوقائع والأحداث. ولا مجال للارتياب في أن ذلك كله إنما يتحقق في رحاب الإسلام، وفي ظلّ أُخوّة الإيمان والاعتقاد (إنما المؤمنون إخوة) أو في ظل الثقافة العربية الإسلامية. ونخشى أن تضيع العروبة والعربية والقومية خارج هذا النطاق!

خامساً: تجاوزات الفكر القومي

نشير أولاً إلى أن حديثنـا في هذه الفقـرة منصبٌ على أبرز التجاوزات الفكرية، أو على صعيد النظر والفكر، دون الدخول في الحـديث عن تجـاوزات أصحـاب هذا الفكـر على صعيد التطبيق. . ليس لأن هذا خارج عن حدود هذه الدراسة فحسب، بل لأن هذه التجـاوزات الحـادّة ـ التي تنكـرت للديمقـراطية والتعددية، أو التي وصلت إلى أشد صور البطش والارهاب ـ لا يمكن نسبتهـا إلى القومية بمفهومها الذي عرضنا له وحللّناه قبل صفحات. وإنما كانت هذه التجاوزات أو بعبارة أدق «الممارسات» غير المعهـودة في قومية أو عروبة أو دين. . أثراً من آثار استعارة القوالب الماركسية، أو من آثار الاعتقاد بأن «الأيديولوجية القومية»! تمثـل حركـة التـاريخ! علمـاً بأن الأيديولـوجية المـاركسية توهم أصحـابهـا كذلـك أنها تمثل حركة التاريخ! وغني عن البيان أن الاعتقاد بأن أيديولوجية بعينها تمثل (حركة التاريخ) يستتبع عدم مشـروعية الرأي الآخر، لأنه بالضرورة مناهض لاتجاه التاريخ، ومن هنا جاء وصف هذه الأيديولوجية بالشمولية، كما جاء تنكّرها للتعدديّة والديمقراطية. . .

ولا نعرض هنا بالطبع لموقفنا من الشمولية وحركة التاريخ،

لأن لها عندنا فهماً غير هذا الفهم، وتفسيراً غير هذا التفسير، من خلال تعاملنا مع الثقافة الاسلامية وفهمنا لنصوص القرآن. وسوف نكتفي في هذا السياق ـ في بعض النقاط التالية ـ بنفي الطابع (العقدي) عن القومية، وبيان انفصالها عن الماركسية، والسبب الذي يقف وراء قرنها بالماركسية، أو قرن الماركسية بها! بغض النظر عن هذه (الشموليات) اليائسة والبائسة! كما نكتفي هنا بهذه الاشارة العابرة إلى «الأساس النظري» لتلك الممارسات التي قام بها دعاة القومية، أو الذين رفعوا شعارها، و «أشاعوا» اسمها، أو حكموا بهذا الاسم في العالم العربي والاسلامي.

ونعود للحديث عن التجاوزات الفكرية التي شكّلت ملامح الفكر القومي، وبخاصة تلك المتصلة بقراءة التاريخ أو بفلسفته السابقة، أو التي بلغت حداً سافراً في مناقضة الاسلام والثقافة الاسلامية، نظراً لتأثر أصحابها ببعض المقولات الأوروبية عن «الدين» أو لأي سبب خاص آخر! وبغض النظر في جميع الأحوال عن مدى الاصرار على بعض هذه المقولات، أو مدى التراجع الذي تم عن بعضها الآخر في الفكر القومي المعاصر.

١ ـ أول هذه التجاوزات الحادّة: إضفاء الصّبغة (التاريخية) على الاسلام، بعدّه مرحلة ماضية من تاريخ الأمة العربية، فالقومية هي الفكرة الكلية الشاملة، والاسلام جزء من هذه القومية، أو هو تجربة عربية، وإن كان تجربة حقبة زاهية ـ أو أزهى الحقب ـ من حقب التاريخ العربي، غير أنه ليس التجربة الأخيرة، بغض النظر

عن مضمون هذه التجربة الأخيرة المزعومة أو التي يجري التبشير بهـا في هذا السياق التـاريخي، ممـا سنشير إليه في النقـطتين الأخيرتين من هذه الفقـرة! يقـول ميشيل عفلق: «الفكرة القومية المجردة في الغرب منطقية إذ تقرر انفصال القومية عن الدين! لأن الـدين دخـل على أوروبـة من الخـارج فهـو أجنبي عن طبيعتها وتاريخها، وهو خلاصة عن العقيدة الأخروية و الأخلاق، لـم ينزل بلغـاتهم القـومية، ولا أفصـح عن حاجـات بيئتهم، ولا امتـزج بتاريخهم. في حين أن الاسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب، ولا هو أخلاق مجردة، بل هو أجلى مفصح عن شعـورهم الكوني ونظرتهم إلى الحياة. وهو فوق ذلك كله أروع صورة للغتهم وآدابهم، وأضخم قطعة من تاريخهم القومي، فلا نستطيع أن نتغنى ببطل من أبطالنا الخالدين بصفته عربياً، ونهمله أو ننفر منه بصفته مسلماً».

ويقول أيضاً: «فالاسلام إذن حركة عربية، وكان معناه: تجدد العـروبـة وتكـاملها!» ويضيف: «إن يقظة العرب اقترنت برسالة دينية، أو بالأحرى: كانت هذه الحركة ـ الدينية ـ مفصحةً عن تلك اليقظة القومية»[1].

ويقول الدكتور شاكر مصطفى: «الاسلام كمنهج حياة وسلوك

---

(١) في سبيل البعث، ص ١٢٧ ط٦ دار الطليعة، بيروت.

بشري هو الصورة المثلى التي أفرزتها العبقرية العربية للحياة والسلوك»![1]

قلت: على الرغم من أن أحداً لم يعد يجهل اليوم أن الاسلام لم ينزل من عند الله سبحانه ليجدد العروبة أو من أجل أن يوقظ العرب، أو يفصح عن يقظتهم القومية! فإن ها هنا نقاط يحسن الوقوف عندها بإيجاز، تصحيحاً لهذه المغالطات التي ما انفك أصحابها يعرضونها بمختلف الأساليب والصيغ والعبارات لأكثر من نصف قرنٍ من الزمان!

النقطة الأولى: لنا أن نتساءل أولاً عن مدى جدّية أو معقولية ما ذهب إليه ميشيل عفلق في ضوء المقاومة الشديدة التي وُوجه بها النبي الكريم ﷺ من قبل الذين جاء الاسلام ليفصح عن حاجات بيئتهم، أو ليكون معبراً عن يقظتهم القومية! والتي تعددت صورها، وتنوعت أساليبها، من جهة (من حصار التجويع، إلى محاولة السجن أو النفي أو الاغتيال.. إلى الحروب الطويلة.. إلخ) والتي بقيت مستمرة طيلة حياة النبي ﷺ بعد البعثة، أو مدة تقرب من ربع قرن لم يدرك هؤلاء خلالها أن النبي

---

(١) من حديث مطوّل عن تجربة العمل القومي، شارك فيه العديد من الباحثين والمفكرين على صفحات جريدة «القبس» في اثنتين وعشرين حلقة. أنظر العدد رقم ٦٠١٢ ص ١١ تاريخ ١٩٨٩/٢/٥ .

الكريم كان مفصحاً فيما جاء به، وأشاعه بينهم ودعاهم إليه.. عن يقظتهم القومية! من جهة أخرى.

ثم لا ندري بماذا نعلل أن هذا الإفصاح لم يشترك فيه أحد مع محمد ﷺ.. لا من أتباعه والمؤمنين بدعوته، ولا من خصومه وشانئيه والذين ناصبوا دعوته العداء هذه المدة الطويلة.. ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾ ولماذا بعد أن دخل هؤلاء في الاسلام في نهاية المطاف لم يؤثر عن أحدهم اتهامه لنفسه أو لقبيلته وقومه بالغفلة أو بالوقوف تجاه حركة المجتمع والتاريخ.. لأنهم وقفوا في وجه (القائد) أو الزعيم!! الذي جاء ليجسّد آمالهم، أو يفصح عن نهضتهم ويقظتهم؟

وأخيراً، فإن هذا الإفصاح كان يفتقر إلى إرهاصاته ومقدماته.. أو إلى تطوره وارتقائه الطبيعي بحيث يفضي إلى ما انتهى إليه من هذه الصورة الشاملة الكاملة لنظام الحياة الذي جاء به الاسلام في العقائد والعبادات والشرائع والأخلاق والفنون والآداب... إلخ فالنقلة بين المعارف والأوضاع التي كانت عليها القبائل العربية في الجاهلية وبين ما جاء به الاسلام أبعد ما يكون عن سنة الافصاح والتطور، من جهة. وأبعد ما يكون عن النتائج التي أفضت إليها مقدماتها، من جهة أخرى.

والكلام حول الأفكار التي ذكرناها في هذه النقطة طويل..

وربما بات اكثره معروفاً أو مكروراً كذلك.

النقطة الثانية: الاسلام رسالة آلهية عامة، وليس دعوة قومية خاصة. وهذه إحدى خصائص نبوّة محمد ﷺ، التي يعدّ الحديث فيها من نافلة القول، ففي حين بعث كل نبيّ في قومه خاصّة، بعُث النبي ـ العربي ـ ﷺ في الناس كافّة. ولهذا كان نداء جميع الأنبياء السابقين «يا قوم» وكان نداء خاتم النبيين وشعاره: (يا أيها الناس) وقد نصّ القرآن الكريم على ذلك في آيات كثيرة، نذكر منها بعض الآيات المتصلة بموسى وعيسى عليهما السلام ـ على وجه الخصوص ـ قال تعالى: ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ الاسراء ـ ٢ . وقال تعالى: ﴿وإذْ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إنّي رسول الله إليكم﴾ الصف ـ ٦ . ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أنّي قد جئتكم بآية من ربكم﴾ آل عمران ـ ٤٩ . ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ المائدة ـ ٧٣ . في حين قال تعالى في خطاب سيدنا محمد ﷺ: ﴿قل يا أيها الناس إنيّ رسول الله اليكم جميعاً﴾ الأعراف ـ ١٥٧ . ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾ الحج ـ ٤٩ ، كما جاء النص على عموم هذه الرسالة الاسلامية ـ المحمدية ـ في قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافّةً للناس بشيراً ونذيراً﴾ سبأ ـ ٢٨ . وقوله عزّ من قائل: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ الأنبياء ـ ١٠٧ .

يضاف إلى ذلك وصف الله تعالى للقرآن الكريم بأنه: «بلاغ للناس» ، و «بيان للناس» و «وهدىً للناس» وأنه «يهدي للتي هي

أقـوم» . وقـد تكـرر الخطاب في القرآن للانسان والناس، وورد ذكرهما فيه في مواضع كثيرة.

وربمـا خلط بعض دعـاة الفكـر القـومي بين عموم الرسالة الاسـلامية ومـرحلية تبليغهـا للنـاس. . تأكيداً لطابعها القومي، ووصولاً إلى الفكرة القائلة إن توسع العرب خارج حدود جزيرتهم كان ضرورة اقـتـصـادية، أو وضعـاً من أوضـاع السياسـة أو الآجتمـاع . . فالتـوسـع العـربي، أو خروج العرب من جزيرتهم سلسلة ممتـدة قبـل الاسـلام وبعـده! ولا استثناء لحركة «الفتح العربي» الذي حصل بعد الاسلام ـ وكما صار يُدعى ! ـ إلا من خلال مزيته في القدرة على تعريب البلاد المفتوحة، من جهة. وعـدم انقـطاع صلة عرب الفتـح، أو موجـة الهجـرة الجديدة، بموطنهم الأصلي . من جهة أخرى. وهكذا تتم التعفية على فكرة البلاغ، وضرورة الوصول بالدعوة الاسلامية إلى حيث يجب أن تصل، بوصفها دين الله تعالى إلى الناس كافّة.

لقـد أُمـر النبي ﷺ بأن يتوجه بالخطاب أو الدعوة أولاً إلى عشيرتـه الأقـربين، قال تعـالى : ﴿وأنـذر عشيرتـك الأقـربين﴾ [الشعراء: ٢١٤] ثم إلى أم القرى ـ مكة ـ ومن حولها، قال تعالى : ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ [الأنعام: ٩٢] لأن هذه هي الوسيلة الطبيعية في التبليغ، وهي وسيلة أو طريقة في إيصال الدعوة إلى النـاس ليس غير! أمـا عموم الرسالة وعالمية الدعوة، فقد كانت تتمثـل في خطاب العشيرة وفي خطاب أهـل مكة، وفي خطاب

العـرب، بقوله منذ اليوم الأول للبعثة: (يا أيها الناس) وليس «يا قوم» كما فعل جميع الأنبياء السابقين.

ومعنى ذلك أن التوسع في إبلاغ الدعوة، وإيصال الرسالة إلى الناس في مشارق الأرض ومغاربها، أو الخروج بها في مراحلها الأولى، وعلى يد النبي ﷺ نفسه، من حدود جزيرة العرب، كان جزءاً لا يتجزأ من طبيعة هذه الدعوة وعالميتها، ولم يكن عملاً من أعمال السياسة، أو ضرورة من ضرورات الاقتصاد، أو وضعاً من أوضاع الاجتماع.. كما جاء في مقولات الفكر القومي، وبخاصة في بواكيره الأولى، وبغض النـظر عن كون هذه المقـولة جاءت نتيجة للخلط السابق بين عالمية الدعوة ومرحلية التبليغ، أو كانت هي الباعث على مثل هذا الخلط والتمويه.. كما نرجحه ونذهب إليه. إن الدعوة الإسلامية أو رسالة الإسلام لم تكن في أي لحظة من لحـظات التـاريخ دعـوة قومية، ثم تحولت، بفعل أي ظرف داخلي أو خارجي، إلى دعوة إنسانية أو عالمية! ولكنهاكانت كذلك منذ لحظة غار حراء التي نزلت فيها الآيات القرآنية تتحدث عن «الانسـان» ومنـذ أن أُمـر النبي بعدها مباشرة بأن ينهض - ﷺ - للانذار.. مطلقاً غير مقيد أو محدودٍ بحيٍّ أو عشيرة أو قوم! ﴿يا أيهـا المـدَّثّـر. قم فأنـذر، وربّـك فكبّـر، وثيابك فطهِّر، والرجز فاهجر..﴾ الآيات.. نعم (قم فأنذر) بهذا الاطلاق، وهذا العموم.

ولكن هذا الانـذار العـام والمـطلق، من أين يبـدأ؟ وكيف

يمضي؟ وكيف يقوم النبي الكريم صلوات الله عليه وسلامه بهذه الرحلة الطويلة؟ رحلة إبلاغ جميع الناس في أرجاء العالم المعمور؟ هنا تأتي مرحلية التبليغ التي أشارت اليها الآيات السابقة. حتى إذا فرغ النبي ﷺ من عشيرته قريش، وأمنَ جبهتها في صُلح موقوت يوم الحديبية، وقبل أن يفرغ من «قومه» العرب في أرجاء الجزيرة، كاتب الملوك والرؤساء في عصره يدعوهم بدعوة الاسلام، وكان على رأس من كاتبهم ودعاهم الى الدخول في دين الله زعيما الدولتين اللتين كانتا تتقاسمان العالم المعمور. . كسرى الفرس، وقيصر الروم.

بل حرص النبي ﷺ على أن يبلّغ دعوته جهاداً وحرباً، كما بلّغها كتابةً وسلماً. . وأن يصل بها إلى الشعوب والأقوام، كما خاطب بها الملوك والحكام! ومن هنا كانت غزوة تبوك وغزوة مؤته، وما أدراك ما غزوة مؤته؟ ولولا أنها نابعة من طبيعة التبليغ الثابتة التي لا تقبل التبديل أو التحويل، والذي حرص النبي الكريم على أن يقوم به في عصره، بل أن ينهض به بنفسه، ولا يدعه لخلفائه من بعده. . لكانت هذه الغزوة ـ لاحظ هذه التسمية ـ أشبه بالمغامرة العسكرية في ظروف بالغة الشدّة والقسوة والصعوبة!

النقطة الثالثة: أن هذه الدعوة العامة والرسالة الانسانية اختار الله تعالى لها العرب، لينزل كتاب الله المعجز بلغتهم، وبين ظهرانيهم، وعلى قلب رجلٍ منهم: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ ولينهضوا من ثم بحمل أعبائها، وتبليغها في العالمين.

ولا تعارض بين الأمرين، كما تقتضي بذلك طبيعة الأشياء! لأنه لا يوجد عاقل ينتظر أن ينزل القرآن الكريم، من أجل تأكيد عموم الرسالة، بكل لغات الأرض! ما كان منها وقت التنزيل، وما سيكون منها إلى يوم الدين![1] أو أن تنزل هذه الرسالة في كل الأقوام.. وعلى قلب رسلٍ وأنبياء من جميع الشعوب والقبائل! ولكن الذي يطلبه كل عاقل في هذا السياق أمرين: الأول: الأسس والاعتبارات التي قامت عليها هذه الرسالة، هل كانت إنسانية أم قومية؟ والأمر الثاني: الأسباب التي من أجلها اختير العرب من بين سائر الشعوب الأخرى لتنزل فيهم هذه الرسالة، ويؤمروا بحملها وتبليغها لجميع الأمم.

---

(١) إذا كان من تحصيل الحاصل أن نقول إن لسان النبي ﷺ لسان قومه، في الوقت الذي قال تعالى بشأن عامة الرسل: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ [إبراهيم: ٤] فإن من اللافت للنظر، ونحن أمام القرآن الكريم الذي نزل بلسانٍ عربي مبين، أن يخاطب الله تعالى نبيّه ﷺ بقوله: ﴿فإنما يسّرناه بلسانك لتبشّر به المتّقين وتُنذر به قوماً لُدّا﴾ [مريم: ٩٧] فيضيف اللسان ـ العربي ـ إلى النبي الكريم لا إلى قومه.. إشارة فيما يبدو إلى أن المسألة في هذه الرسالة العامة الخالدة رُوعي فيها لسان المبلِّغ لا لغة القوم! أو لأن المسألة تبدأ من النبي لا من قومه، أو تبدأ منه ولا تنتهي عندهم.. لأنهم جزء من المكلّفين لا جميعهم، والله أعلم. وغني عن البيان أنه ما من عقيدة أو فلسفة ـ أو بيان ـ أو مذهبٍ وضعي يحمل طابع (العالمية) إلا وكتب أول ما كتب بلغة صاحبه، أو بلسانٍ واحد!

أما الأمر الأول، فأوجز ما نقول فيه إن الرسالة الاسلامية قامت على أسس واعتبارات إنسانية، ولم تقم ـ عقيدةً وشريعةً ومنهج حياة ـ على أسس بيئية عربية، أوعلى أي لون من ألوان الاعتبارات المحلية أو الموقوتة أو الطارئة! اي أنها جاءت وفقاً لحاجات الانسان، أو مفصّلة عليه إن صح التعبير خارجاً من إطار البيئة أو الزمان. . ولم تأت وفقاً لحاجات العرب أو المجتمع العربي حتى تكون رسالة عربية أو مفصحة عن يقظة العرب القومية. . أو تجديداً للعروبة. . إلخ هذه الدعاوى والمزاعم! وإذا كنا نعود في جميع العصور في فهم القرآن الكريم بوصفه كتاباً عربياً مبيناً إلى معهود العرب في الخطاب أو اللسان، فليس معنى ذلك أن كتاب الله تعالى جاء استجابة لأوضاع العرب الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية. . علاجاً لها، وإصلاحاً لحالها دون سائر الناس. أو بعبارة أخرى: لم ينزل القرآن علاجاً لأوضاع العرب، ولكنه جاء هادياً لجميع الناس، أو للانسان في كل زمان ومكان، ففي الوقت الذي قال تعالى في شأن بني إسرائيل: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أُحلّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيرا﴾ [النساء ١٦٠] قال في وصف خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام: ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصْرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ [الأعراف ١٥٧] ونكتفي بهذه الخلاصة السريعة لأن المتابعة في هذه المسألة تخرج بنا إلى ساحة الحديث عن مناهج الاعتقاد وقواعد التشريع. . . وكيف قامت جميعها على

أسسٍ إنسانية عامة.

أما نزول هذه الرسالة فيهم -الأمر الثاني المشار إليه- واختيار الرسول منهم، فلما تمتعوا به من المزايا والصفات النفسية والذهنية، وما عرفوا به من الفضائل الحميدة، والصفات الكريمة، كالصبر والصدق والكرم والشجاعة والأمانة والغيرة وصلة الرحم والدفاع عن المظلوم، والوفاء بالوعد.. إلخ. فضلاً عن تأثرهم الشديد بالكلام وما ينطوي عليه من أسباب البلاغة والبيان.. وما يومىء إليه هذا التأثر - بدوره - ويشير إليه من صفاتهم النفسية تلك! خصوصاً إذا تذكرنا أننا أمام رسالة كان معجزتها - ودستورها - كلاماً يُتلى لا آية كونية تخضع لها الرقاب. يقول العلّامة عبدالحميد الفراهي الهندي: «وكانت العرب على غاية قصوى في تأثرهم بالكلام. وهذا لقوة قلوبهم، وشدة تأثير أقوالهم، فكأنّ كلامهم يحمل روحاً منهم، وكأن السامع يتأثر له من وجهين: من قوة المتكلم، ومن اعتيادهم التأثر. وسذاجتهم وصدقهم نفت عنهم الخواطر وتشتت البال، وصرف القول عن نهجه الصادق. فكان قولهم وسمعهم من القوة والاصابة كضربة سيف مرهف. ولولا أن كلامهم جماع همتهم ما ارتجلوا قصائد طويلة دامغة، وكانوا أصدق الناس وأنطقهم»[1].

---

(١) نقلاً عن الدكتور أحمد حسن فرحات: مجلة الشريعة والدراسات الاسلامية. التي تصدرها جامعة الكويت، ص ١١ السنة السادسة، العدد الثالث عشر. رمضان ١٤٠٩ هـ.

والـذي نودّ التـأكيد عليه في هذا السياق: أن هذا الاختيار الآلهي للعرب ـ قوماً ولساناً ـ يدل بوضوح تام على الطابع الانساني ـ لا القومي ـ لرسالة الاسلام، لأن جماع الفضائل الانسانية التي جاء بها القرآن الكريم، بوصفه الكتاب الآلهي الأخير للإنسانية، وجملة الملكات والخصائص النفسية والعقلية التي تؤهل أصحابها للنهـوض بتبعـات هذا التكليف، على نحـو موضـوعي شامـلٍ ومتوازن. . اجتمع منها في العرب ما لم يملك مثله أو قريباً منه أمة من الأمم أو شعب من الشعوب. . أو قومٌ من الأقوام!

كما أن المعجزة البيانية لهذه الرسالة ـ القرآن العربي المبين ـ تومىء إلى هذا الطابع الانساني وتدلّ عليه، لأن الكلام والبيان هو ما امتاز به الانسان، فجاءت معجزة النبي العربي ﷺ «بيانية» للاشارة إلى أن هذه الرسالة هي رسالة الانسان حيث كان الانسان، وفي أي زمان وجد! «ولم يكن البيان بمعناه الأدق من «النطـق» كما توحي بذلك بعض الآيات القرآنية وقفاً على لغةٍ من اللغات، أو أمة من الأمم. . ولكن اختيار لغة العرب لينزل بها القرآن، وليحمل بها إلى العالم رسالة الانسان يشير إلى فضيلة بيانية جامعة امتاز بها اللسان العربي على كل لسان!».

وهذا ما حملنا في وقت سابق على ضرورة التمييز بين كون معجزة هذه الرسالة ـ القرآن ـ بيانية، وبين كون هذا البيان جاء بلغة العرب! لقد جاءت هذه المعجزة البيانية كما أوضحنا للدلالة على أن رسالة الاسلام رسالة إنسانية، وليس لأنها نزلت في قوم أولي

فصاحة وبيان. ومن ثم فإن ميدان البحث الحقيقي هو لماذا جاء هذا البيان بلغة العرب.. أي البحث عن المزايا البلاغية والبيانية التي تمتعت بها اللغة العربية بالقياس إلى سائر اللغات[1].

وهكذا يجب علينا التفريق بين كون الرسالة الاسلامية نزلت في العرب، وكونها رسالة إنسانية عامة، وليست للعرب وحدهم. والتفريق بين كون معجزتها بيانية، وكون هذا البيان جاء بلغة العرب.

والخلاصة أن العرب ـ جنساً ولساناً ـ كانوا مهيئين لهذا الاختيار الإلّهي.. من أجل النهوض بتبعات رسالة إنسانية.. بكل ما تحمله هذه الرسالة من معاني العموم والخلود...

وفي وسعنا أخيراً، أن نضيف إلى هذه الاسباب الثابتة أو النابعة من اللسان ومن هبات الخلق والتكوين.. الأسباب التي صاحبت لحظة نزول القرآن الكريم في الزمان والمكان. والتي أهّلتهم بدورها ـ بوصفها لحظة تاريخية ـ للنهوض بتبعات هذه الرسالة على أحسن الوجوه، من جهة. وفي فترة «تاريخية» قياسية أو غير معهودة، من جهة أخرى. وقد تكفّلت دراسات كثيرة بالحديث عن هذه الأسباب الاجتماعية والسياسية والثقافية ـ

(١) انظر دراسة موسعة حول هذه النقطة في بحثنا: سمات البلاغة النبوية. المنشور في العدد الخامس من مجلة مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر. العدد الخامس ١٩٩١، ص ٢٥٨ فما بعدها.

والـــدينية ـ وبحسبنـا في هذه العجـالـة أن نشير إلى جملة هذه الاسباب، أو خلاصتها المتمثلة في خلو هذا المجتمع من سلطة سياسية قوية كسروية أو قيصرية. . وعدم وجود ثقافة أو تقاليد ثقافية متمكّنة تملأ فراغ النفس العربية بحيث لا تسمح للاسلام أن ينفذ إليها أو تتمكن ثقافته منها إلا في عقود أو أجيال على سبيل المثال. إلى جانب الـدور الايجـابي للتقـاليد الأسرية والنظم القبلية في العطف على الدعوة في بعض المراحل، أو حماية النبي الكريم في بعض المواقف. . . إلخ.

النقـطة الـرابعة: والنقطة الهامة التي تحسم الخلاف حول مكـانـة العـرب ومنـزلتهم في العصر الجاهلي، والتي بلغت في التقدير القومي إلى حد اعتبار الاسلام من إفراز العبقرية العربية ـ على حد تعبير الـدكتـور شاكر مصطفى! ـ والتي نزل بها بعض أدعياء الدعاة إلى حد عدّهم أسوأ الشعوب والأمم في الجاهلية، وأن الاسلام بمعجزته في إعادة صياغة الأمم ارتقى بهم إلى مقعد القيادة والسيادة على مسـرح التـاريخ! أقول: النقطة الهامة التي تحسم الخلاف بين هذين الفريقين حول هذه المنزلة: هي وجوب التفـريق في الشخصية العربية ـ الجاهلية ـ بين الفطرة والموهبة والاستعداد، وبين الأوضاع التي كانت قائمة في العصر الجاهلي، والواقع الذي انتهى إليه العرب أو انتهت إليه القبائل العربية بين يدي بعثـة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه. فالعرب أصلح شعـوب الأرض قاطبـة لحمل أعباء هذه الرسالة. . فطرةً

واستعداداً، ومواهب وملكات. لا واقعاً وسلوكاً وممارسات . . في لحظة تاريخية غلبت عليها الحروب والمنازعات، أو سرت إليها بعض الأخطاء والنقائص في الاقتصاد والاجتماع وسائر شئون الحياة! ومن هنا جاء قول النبي ﷺ: «تجدون الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا، وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه» ـ رواه مسلم ـ وهذا أيضاً ما دل عليه دعاء النبي ﷺ ـ في الحديث الذي أخرجه الترمذي والامام أحمد ـ «اللهم أعزّ الاسلام بأحبّ هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب» فإن الدعاء لأحدهما على هذا النحو يدل على إمكانية ترقي كلٍ منهما، بناءً على موهبته واستعداده، في المعارج التي ارتقى إليها ابن الخطاب يوم أسلم، والمكانة التي تبوّأها في التاريخ الإسلامي والإنساني، في حين توارت مواهب عمرو بن هشام ـ أبي جهل ـ وإن شئت قلت: عبقريته، وراء رمال الجزيرة. . قتلتها العداوة، ودفنها الصلف والجحود! لا نخطىء إذن إذا قلنا ـ على عكس ما ذهب إليه بعض دعاة الفكر القومي ـ إن الاسلام نزل في العرب، وأمروا بحمله وتبليغه في العالمين بناء على عبقريتهم، أو نظراً للصفات العبقرية التي امتازوا بها! أما أن نقول إن الاسلام هو من إفراز هذه العبقرية!! فهذا قلبٌ للأوضاع والمفاهيم. . فضلاً عن مخالفته الحادّة ومناقضته لما عُلم من دين الله: ضرورةً وعقلاً وعلماً وتاريخاً. . وأدلة وشواهد. . عصراً بعد عصر، وجيلاً بعد جيل.

وقد أشار ابن تيمية رحمه الله في سياق حديثه عن الخصائص العقلية والبيانية، وسائر الخصائص الأخرى، التي فُضّل بها العرب. . إلى هذا التفريق الذي ذهبنا إليه بين مواهب القوم وواقعهم. . أشار إليه بعبارته الخاصة، أو على نحوٍ ما. فقال رحمه الله:

«وسبب هذا الفضل ـ والله أعلم ـ ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم». وذلك أن الفضل إما بالعلم النافع، وإما بالعمل الصالح.

«والعلم له مبدأ: وهو قوة العقل الذي هو الحفظ والفهم. **وتمام**: وهو قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة. والعرب هم أفهم من غيرهم، وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة. ولسانهم أتم الألسنة بياناً وتمييزاً للمعاني. . . .

« وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق، وهي الغرائز المخلوقة في النفس. وغرائزهم أطوع للخير من غيرهم، فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة. لكن كانوا قبل الاسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله. ليس عندهم علم منزل من السماء، ولا شريعة موروثة عن نبي، ولاهم أيضاً مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة، كالطب والحساب ونحوها. إنما علمهم ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب، وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم، وما احتاجوا إليه في دنياهم من الأنواء والنجوم، أو من الحروب.

«فلما بعث الله محمداً ﷺ بالهدى، الذي ما جعل الله في الأرض، ولا يجعل منه أعظم قدراً، وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم، ومعالجتهم على نقلهم عن تلك العادات الجاهلية والظلمات الكفرية، التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتهم. فلما تلّقوا عنه ذلك الهدى العظيم زالت تلك الريون عن قلوبهم، واستنارت بهدى الله الذي أنزل على عبده ورسوله، **فأخذوا هذا الهدى العظيم بتلك الفطرة الجيدة،** فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزل الله إليهم، بمنزلة أرض جيدة في نفسها، لكن هي معطلة عن الحرث، أو قد نبت فيها شجر العضاه والعوسج، وصارت مأوى الخنازير والسباع. فإذا طهرت عن المؤذي من الشجر والدواب، وازدرع فيها أفضل الحبوب والثمار، جاء فيها من الحرث ما لا يوصف مثله..»[1].

قلت: وقد يكون في وسعنا أن نذهب في تأكيد هذا التفريق الذي قلناه وكتبناه في وقت سابق، والذي لمحناه بعد ذلك فيما قاله ابن تيمية رحمه الله، إذا لاحظنا أن جزءاً كبيراً من واقع العرب الفاسد أو السيىء في الجاهلية، إن لم يكن الجزء الأكبر والأهم، كانت دوافعه نبيلة، ومقاصده حسنة! وإنما لحقه الخطأ والفساد من اختيار الطرق والوسائل، أو من المغالاة التي توقع صاحبها في أسوأ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الاسلام ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) تحقيق محمد حامد الفقي. ص ١٦٠ ـ ١٦٢ المطبعة السلفية.

مما كان يحذر. . كوأد البنات خشية العار على سبيل المثال!

ومن المعلوم أن من أسوأ أعمال العرب أو ممارساتهم في الجاهلية: معاقرة الخمر، ولعب الميسر والقمار! وإنّما حملهم على الوقوع في هاتين الخلّتين: الجود والكرم، والرحمة بالفقراء والمساكين! وقد نزل في هاتين الصفتين في بعض مراحل التحريم قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما. .﴾ [سورة البقرة: ٢١٩]

أما الخمر فقد أطنب الشعراء في مدحها لأنها تعلم الخروج عن المال، وتعوّد على البذل والسخاء؛ قال عنترة:

فإذا شربتُ فانني مستهلكٌ ... مالي وعرضي وافر لم يُكلم!
وإذا صحوت فما أقصّر عن ندىً ... وكما علمت شمائلي وتكرّمي

وقال عمرو بن كلثوم:

ترى اللَّحِزَ الشحيح إذا أُمرّتْ ... عليه لماله فيها مُهينا

وأما الميسر فكان الفائز أو الرابح لا يأخذ من الأبل التي جرت عليها المقامرة شيئاً! بل يجعل لحومها للفقراء والمساكين، قال مكي بن أبي طالب المفسّر المشهور رحمه الله: «وكانت العرب ـ أهل المقدرة منهم ـ يقامرون على الابل في الشدائد، ويجعلون لحومها للفقراء منهم لتعديل أحوال الناس، ولذلك قال تعالى: ﴿ومنافع للنّاس﴾»[1] قلت: ويومىء هذا التقييد، في السياق

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ـ مخطوط ـ لمكي بن أبي طالب.

القـرآني المعجز، بعد الاطلاق السابق (فيهما إثم كبير) إلى هذا المعنى الـذي ذكـره مكي وغير واحـد من المفسّـرين! بمعنى أن المنافع لا تعود على المقامر أو شارب الخمر! بل الذي يعود عليهما وعلى المجتمـع كله في النهـاية أو في المحصّلة الأخيرة: الإثم والضرر والفساد: (قل فيهما إثم كبير). .(وإثمهما أكبر من نفعهما)!

وقد سمّى العلاّمة الهندي عبدالحميد الفراهي هذه الأوضاع الفاسدة التي كان عليها العرب في الجاهلية «سيئات» وذهب في تعليلها ـ وقد رصد الكثير منها رحمه الله ـ نحواً من هذا الذي قلناه، وإن كانت عبارته توهم أنه ذهب أبعد من ذلك، لأنه قال إن هذه السيئـات نبعت من الخيرات. ونـورد فيمـا يلي نصّ كلامه الذي يغني عن المزيد من الأمثلة والشواهد، قال رحمه الله:

«فـإن العرب على علاّتها كانت على سذاجة الفطرة، وحب المعـالي من الجـود، وصلة الـرحم، والغيرة، والشكـر. لا سيما شرفـاؤهـم وخـيارهـم، حتى إن سيئـاتهم نبعت من الخيرات، فمعـاقـرتهم للخمـر، ومقـامـرتهم الميسـر جاءت من الجـود. وحروبهم: من أداء حق المقتول. والغضب: للقسط. وظلمهم: من إباء النفس عن الدنية، ولذلك رحموا الضعفاء والأرامل، ولم يقتلوا في الحرب الإماء ولا الأطفال، ولم يرهقوا المنهزمين. وإنما بقـوا على الفقـر وسـوء العيش: لإبائهم عن الطاعة لملك يجمع أمرهم، إلا من لا يتكبر عليهم، ويعدل بينهم، ويكون كأحدهم.

كمـا كان الشيخـان ـ في الاسـلام ـ وذوو أمـرهـم في الجاهلية. فأملكهم وأقهرهم: أعدلهم! كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلم يرد إلا أن يقهرهم بكمال عدله».

وأخيـراً، فإن فحوى ما قلناه في هذه النقطة، والنقطة الثالثة السابقة: أن مكارم الأخلاق: سلوكاً وممارسة، وغاية ومطلباً ـ مع ما اكتنفهـا من أخـطاء ومـظالم ـ كانت لُحمـة حياة العـرب في الجاهلية، وإن كان سُداها حروباً ومنازعات وتفرق قبائل!

٢ ـ أما التجاوز الثاني على صعيد الفكر القومي، وهو تجاوز يتصل بالمقولة التي ناقشناها في هذا التجاوز، كما يتصل بفلسفة التاريخ التي تحدثنا عنها في الفقرة السابقة، والتي أفصحت ـ كما رأينـا ـ عن محـاولـة فصم عُرى التـاريخ العـربي عن التـاريخ الاسـلامي، فهـو محـاولـة (تضخيم) تاريخ الجاهلية، أو تاريخ العـرب قبـل الاسـلام، والاعتـداد به، وجعله في الغالب مصدر انتمـاء واعتـزاز. وتصـوير العـرب في الجاهلية، أو في تاريخهم الـطويل قبـل الاسـلام على أنهم أصحاب حضارة أو حضارات ممتدة، وأن تطورهم الطبيعي كان سيفضي بهم في وقت قريب إلى المكـانـة التي تبوؤوها ـ أو قريب منها ـ في ظل الاسلام. وربما وصـل الغلوّ ببعضهم ـ كمـا عانيناه وعايّناه! ـ إلى حد الزعم بأن الاسـلام دفـع بهم في حركة الفتح قبل أن يستكملوا ذلك الطور الطبيعي! . . بغض النظر عن النتيجة التي أراد أن يصل إليها من خلال هذا الزعـم!

ويقـابل هذا كله محاولة (تحجيم) دور الاسلام، أو التهوين من شأنـه بالنسبة للعرب خاصة، وذلك من خلال تسليط الأضواء على المشكلات التي عانوا منها في البلاد المفتوحة، والتركيز على حركـات الـرفض والمنـاقضـة التي قامت في وجـه الاسـلام، كالقرامطة، والزنادقة، والزنج، والحشاشين، وإخوان الصفا. . . وربمـا التعـاطف مع هذه الحـركـات أو الـدفـاع عنها في بعض الأحيان. إلى جانب العناية الملحوظة بنقاط الضعف أو الجوانب السـوداء في التـاريخ الاسلامي. . بوجه عام، كالنزاعات والفتن والحروب التي قامت بين الدويلات والأسر الحاكمة، أو بين أرباب الفرق وأصحاب المذاهب!

ويبـدو لنا أن الغرض من هذا كله: تحقيقُ قدر معقول أو لا بأس به من (التعادل) بين العصر الجاهلي والعصر الاسلامي حتى يستـقيم (التـاريخ القـومي) أو يقف على قدميه! أوحتى تتّسق الشخصية القومية العربية عبر عصور التاريخ!

بل إن التركيز على هذه الشخصية القومية ومحاولة إبرازها في مواجهة الاسلام مع الأسف، وفي خضم الأحداث التي عصفت بالـدولـة العـربية الاسلامية. . حمل بعضهـم أو بعض المؤرخين منهم على وصف البويهيين والسلاجقة ـ الذين حكموا كسلاطين في ظل الخليفـة العباسي ـ بالسلطة الأجنبية الحاكمة! وأن يقول في الخـلافة العباسية إنها كافحت بالاتفاق مع منظمات الفتوة!! ضد العـدوان الأجنبي سواء أكان تركياً أم صليبياً!! يقول الاستاذ

الـدكتـور عبـدالعـزيز الـدوري: «ومن الطبيعي أن تقف السلطة الأجنبية الحـاكمـة، بويهية أو سلجـوقية، موقفاً عدائياً من الروح العربية والمنظمات الشعبية!! وحاولت تشويه دور تلك المنظمات وتسـويد صفحاتها، فلما انتعش العباسيون في القرن الثاني عشر للميلاد (!) أدركوا ما لهذه المنظمات الشعبية من قيمة وأهمية (!!) وحصل تطور خطير وهو الاتفاق بين منظمات الفتوة من جهة وبين الخـلافـة العبـاسية من جهـة اخـرى في كفـاحهم ضد الفوضى الاجتماعية وضد العدوان الأجنبي سواء أكان تركياً أم صليبياً!!»[1]

قلتُ: السلاجقة العظام الذين كان الفضل لوزيرهم المشهور «نظام المُلْك» ـ ولعله أكبر وزير في تاريخ الاسلام ـ في التمكين للثقافة العربية الاسلامية في مواجهة الحركات الباطنية والقرمطية التي كادت أن تعصف بدولة الاسلام في القرن الخامس الهجري ـ أو الثـاني عشـر بتاريخ الدكتور الدوري الميلادي ـ والسلاجقة العظام الذين قاوموا الزحف الروماني والغزو الصليبي ـ ولا يجهل مؤرخ مطلع كصـاحب هذا القـول معـركة ملان كرد ووقفة القائد

---

(١) الجـذور التاريخية للقومية العربية، ص ٥٣ ـ ٥٤ طبع دمشق. وانظر الفقرة الخاصة بالسلاجقة في تمهيد كتابنا: الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن. طبع مؤسسة الرسالة ببيروت ١٩٧٠ . ومعلوم أن السلاجقة الذين حكموا بغداد ـ كسلاطين ـ في ظل الخليفة العباسي منذ عام ٤٤٧ كانوا سنّة شافعية. في حين أن أسلافهم البويهيين الذين حكموا من ٣٣٤ إلى ٤٤٧ كانوا شيعة معتزلة.

السلجوقي البطل ألب أرسلان ـ لا يجد الباحث بأساً من جمعهم مع الصليبيين، وبالعجائب المفارقات، في قائمة واحدة. . هي قائمة العدوان الأجنبي على الأمة العربية أو القومية العربية. . لماذا هذا التشويه والتحريف؟ لنرتقي بسند القومية العربية إلى العصر الجاهلي! بل لنزعم أن الإسلام حقبة ماضية سواء أكانت زاهية أم غير زاهية! بل لنزعم أنه صورة طارئة ليس لها أن تلتصق بالعروبة والقومية إلى الأبد!! وفي هذا يتابع الدكتور الدوري فيقول: «وحين بدأ الوعي العربي الحديث صدر عن مقومات القومية العربية وعن الجذور التاريخية التي لاحظناها (!) فقد بقيت اللغة العربية مصدر اعتزاز للعرب، وبقي إرثهم الثقافي يؤثر فيهم رغم التحجرات، وبقيت لديهم فكرة الأمة العربية وإن خالطها الشعور الاسلامي»!!

ونذكّر في تعليقنا على هذه المحاولة الغريبة بضرورة إعادة قراءة التاريخ ـ الاسلامي ـ قراءة موضوعية تأخذ بعين الاعتبار جميع العناصر الفاعلة والمؤثرة في صنع هذا التاريخ! بعيداً عن القولبة التي يفرضها التفسير المادي، من جهة. وبعيداً عن الأغراض والأحكام المسبقة، من جهة أخرى.

ونكتفي في ردّنا وتصحيحنا لهذا التجاوز الثاني، بجملته، بالإشارة إلى أمرين مهمّين:

الأمر الأول: أن المعنى القومي الذي يراد إحياؤه وإبرازه في مقابلة الفحوى الاسلامي للشخصية العربية ـ وكما يفهم من

محاولة التضخيم والتحجيم هذه ـ لم يكن له وجودٌ من الأصل في العصر الجاهلي! لأن وجوده ارتبط بالقرآن والاسلام، فولاء العربي في الجاهلية إنما كان لقبيلته ولم يكن لقومه! ولهذا لم ترد كلمة «عرب» في الاستعمال للدلالة على مدرك قومي جامع! وإنما ورد هذا الاستعمال في القرآن الكريم. وفي هذا يقول الاستاذ العلّامة المؤرّخ الدكتور عمر فروخ رحمه الله:

«ونمرّ بالشعر الجاهلي الذي وصل إلينا، فلا نجد فيه صيغة من جذر «ع ـ ر ـ ب» للدلالة على معنى قومي يتعلق بالجنس، ولا على معنى يتعلق باللغة التي نتكلمها، وهذا أمرٌ له تعليله في تاريخنا السابق على الاسلام. لقد كان الجاهليون غارقين في منازعاتهم القبلية فلم يكن لديهم، فيما بين يدينا من التراث اللغوي، ما يدل على المدرك القومي الجامع».

ويضيف الدكتور فروخ قائلاً: «ولكن لما وقف الجاهليون في أعقاب العصر الجاهلي أمام الفرس على حدودهم الشرقية، ثم كرهوا الحكم الفارسي الذي كان قد استطال في شبه الجزيرة، بدأوا يستشعرون شيئاً من البُغضة للفرس، وشعر عنترة بهذه البُغضة، فقال في معلّقته عن ناقته:

شربت بماء الدُّحرُضَيْن فأصبحت زوراءَ تنفِر عن حياض الديلم

إن عنترة قد أحسّ بالدافع القومي الجامع، ولكن لم يجد

الكلمة التي تعبّر عنه فاضطر إلى أن يدور حول المعنى ببيت كاملٍ من الشعر».

وبعد أن يشرح الدكتور فروخ ورود كلمة «عربي» في القرآن الكريم، يقول «إن استعمال كلمة عربي في القرآن الكريم دلّت الشعراء على التعبير الذي لم يقع عليه عنترة. . . وهكذا بدأ في الشعر العربي مَدْرَك لم يكن معروفاً من قبل، هو أن العرب جماعة واحدة ذات نطاق من الوحدة الجامعة. على أن مَدرك العروبة يومذاك، أو المدرك القومي العام على الأصح، كان والاسلام شيئاً واحداً. . وجرى المدركان جنباً إلى جنب عصوراً. . »

ويقول أخيراً: «هذا كله من الناحية اللغوية في تاريخ كلمة «عرب». ولكن يبدو لنا ايضاً أن الاسلام هو الذي جعل لكلمة «عرب» هذا المقام في شعور الجماعة، ولكن نهى عن ان يكون هذا الشعور عاملاً مفرّقاً بين صفوف الأمّة التي وحّدها الاسلام»[1].

ونقول تأكيداً لما ذكره الدكتور فروخ رحمه الله، وتعقيباً عليه: إن المجتمع الجاهلي لا يمكن وصفه بأنه مجتمع مدني، لأنه كان مجتمعاً قبلياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. ولا يمكن وصف العرب في الجاهلية بأنهم أمة. . إلا إذا قلنا ـ مع بعض

---

(١) تاريخ الجاهلية للأستاذ الدكتور عمر فروخ رحمه الله، ص٤١ ـ ٤٣ الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٤ .

البـاحثين ـ إنها أمّة مشتتة الأركان، مهدّمة البنيان. . ومع التسلم بأن بعـدهـا عن المـدنية إنما كان لشدة إبائها وحميّتها، وصعوبة قيادها! حتى كأن القرآن الكريم ـ على حد تعبير الفراهي ـ «أخرج أمة متمدّنة من الأسود الضواري»![1]. قال تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعـاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم إنـه عزيز حكيم﴾ [سورة الأنفال: ٦٣].

أمـا **الأمر الثاني**: فهو أن هذه المقولة تذكّرنا بالشعوبية التي عرفت في العصر العباسي! فقد قامت هذه الفرقة أو الحركة على الانتقـاص من قدر العـرب، والحطّ من منـزلتهم في المـدنية والحضـارة! . . وصـولاً إلى محاربة الاسلام والانتقاص من قدره بوصفه دين العرب! ولهذا قام بها نفرٌ من الأعاجم من أبناء البلاد المفتـوحـة. أمـا هذه المقـولـة ـ القـومية ـ الجـديدة! فقد حاول أصحابها الرفع من قدر العرب في الجاهلية. . كما حاولوا تضخيم تاريخهم «وحضـارتهم ومـدنيتهم»! على حسـاب الإسـلام. . أو وصولاً إلى الانتقاص من قدره! فكأننا اليوم أمام شعوبية جديدة! لأن الغاية واحدة وإن تعددت الطرق والوسائل. . ولا مانع عندنا من تسمية هذه الشعوبية بالشعوبية القومية! أو الشعوبية الجديدة! وقد تكون هذه الشعوبية أسوأ من سابقتها وأشد ضرراً إذا أخذنا برأي ابن تيمية القـائـل إن لقب الشعـوبية أُطلق في التـاريخ على

---

(١) الزميل الـدكتـور أحمـد حسن فرحات، مجلة كلية الشريعة العدد ١٣ جامعة الكويت.

الفـرقةالتي تقول «إنه لا فضل لجنس العرب على جنس العجم» ولم تذهب إلى أبعد من ذلك. وقد قال ابن تيمية في حكمه على هذه الفرقة معقباً: «والغالب أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن نوع نفـاق إمـا في الاعتقـاد، وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس، مع شبهـات اقتضت ذلـك» قال: «فـإن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم: عِبرانيهم وسُريانيهم، رومهم وفرسهم وغيرهم»[1].

٣ ـ ومن أغرب تجاوزات الفكر القومي: إعطاء القومية بوصفها انتمـاءً مضمـونـاً عقـدياً أو عقائدياً بحيث تصبح القومية «ديناً» أو عقيدة تحل محل العقائد والأديان!

ـ ومن أخطر هذه التجاوزات وأسوئها أثراً كذلك: ربط القومية ببعض الافكـار والمـذاهب الاجتمـاعية، التي ليست داخلة في بنائها، ولا تقتضيها طبيعتها. . كما قلنا في مطلع هذا البحث.

ويبـدو أن هاتين المقولتين جاءتا من خلال أن الطرح القومي تجـاوز أصحـابـه الاسـلام، بوصفه المضمون الحقيقي والمقوّم الأساس للشخصية العربية، فكان لا بد من جعل القومية ديناً، أو ربط القومية بعجلة الماركسية أو العلمانية أو أي نموذج آخر مستعار أو منقول أو مستورد!

ونخصص هذه النقطة للحديث عن التجاوز الأول الذي جعل

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ص١٤٨، ١٤٩ .

من القومية ديناً! في زحمة الصيغ والأشكال التي أخذتها الفكرة القومية، أو التي تقلّبت فيها خلال ما يزيد عن نصف قرن من الزمان. وقد لخّص أستاذنا محمد المبارك هذه الصيغ في سياق حديثه عن هذا التجاوز الحادّ، فقال رحمه الله:

«ولقد أخذت الفكرة القومية أشكالاً وصيغاً مختلفة: فكانت شعوراً طبيعياً في بداية الأمر لا يتجاوز شعور الانسان بانتمائه إلى أسرة معينة أو قبيلة أو نسب. وهي في هذه الحدود أمرٌ طبيعي لا يتعارض لا مع الشعور الانساني ولا مع الأخلاق ولا مع العقيدة الدينية. ثم اشتد هذا الشعور في نطاق ظروف معيّنة بدأت من رد الفعل عند العرب مثلاً تجاه العصبية التركية التي غذّاها ملاحدة الأتراك من جماعة تركية الفتاة والاتحاد والترقي، واستمرت واشتدت في عهد الاستعمار الفرنسي والانجليزي في بعض البلاد العربية، واتخذ هذا الشعور حينئذٍ شكل مذهب أو خطة سياسية هدفها توحيد البلاد العربية وتحريرها. وكانت هذه الصيغة في الحقيقة تمهيداً لمرحلة ثالثة خطيرة، وهي اتخاذ القومية... مبدأً بل فلسفة بل عقيدة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة! وإليكم بعض تعابير هذا الاتجاه:

«القومية بالنسبة إلينا نحن القوميون العرب دينٌ له جنّته وناره، ولكن في هذه الدنيا» (علي ناصر الدين).

«لا ينهض العرب حتى تصبح العربية أو المبدأ العربي ديناً

يغـــارون عليه كمـــا يغـــار المسلمـــون على القـــرآن الكـــريم، والمسيحيون على إنجيل المسيح الرحيم» (عمر فاخوري).

«وتجد مثل هذه التعابير في كتاب (مع القومية العربية) وغيره»[1].

ونضيف إلى هذا الـذي ذكـره الأستاذ المبارك ما سمعناه من بعض زمـلاء الدراسة وقد سئل مرّة عن دينه؟ وكان قد انضم إلى الركب القومي، فقال: قومي عربي!!

وغني عن البيان أن هذا التجاوز الذي يدعو إلى الاشفاق من هذا الجهل بالدين والقومية جميعاً! غير قابل للحياة والاستمرار! بل لعل مثل هذه الصيحات قد ولدت ميته! وقد لا يخالجنا الشك في أن أصحابها كانوا ملاحدة أو متشككين من الأصل.. وإنما رفعوا شعار القومية ليخفوا به نزعتهم هذه! أو ليوهموا الناس أنهم ما زالوا مؤمنين!!

---

(١) المجتمـع الاسلامي المعاصر، ص ١١٧ الطبعة الخامسة ١٩٨٠ دار الفكـر. والكتاب الذي أشار إليه الأستاذ المبارك رحمه الله من تأليف: الحكم دروزة وحـامـد الجبـوري. ويضيف علي ناصـر الـدين قائلاً: «العروبة نفسها دين عندنا نحن المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين لأنهـا وجـدت قبـل الاسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا، مع دعوتها إلى أسمى ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات، وفضائل وحسنات»!!

٤ ـ وأخيراً، فإن التجاوز الثاني ـ المشار إليه ـ والذي انبنى على إقصاء الاسلام بوصفه المقوّم الأساس للشخصية العربية، أو على الانتقاص من دوره ـ انتقاصاً حاداً بلغ حدّ الانحسار ـ في بناء هذه الشخصية: ربطُ القومية ببعض المذاهب والفلسفات التي لا تقتضيها طبيعتها كما قلنا أكثر من مرة. وأبرز ما تجدر الإشارة إليه من هذه المذاهب والفلسفات: الماركسية والعلمانية.

أ ـ فقد ظهر في نطاق الربط بالماركسية والاشتراكية، على الصعيد السياسي والفكري والاجتماعي، شعارات مناقضة كثيرة للاسلام وللثقافة الاسلامية. وأهمها على الصعيدين الأخيرين: الربط بين الثقافة القومية والثقافة الاشتراكية. والربط بين ما سُمّي النضال القومي والنضال الطبقي!

والمتأمل في هذين الربطين لا يخامره شك في أن القومية، في هذه المرحلة، أو من خلال هذا الطرح، لم تكن أكثر من جسر عبرت عليه الماركسية إلى العالم الاسلامي. فكأنها فرّغت الشخصية العربية الإسلامية من محتواها الاسلامي تمهيداً لملئها بعد ذلك بالاشتراكية والماركسية. وكأنها قبل ذلك قطّعت أوصال الدولة العثمانية، أو قطّعت صلة العالم العربي بالعالم الاسلامي لتصله بعد ذلك بالمعسكر الاشتراكي أو الوثني! والعجيب حقاً أن تكون الثقافة الاشتراكية أقرب إلى «الثقافة القومية» من الثقافة الاسلامية! وأن تكون الدول الاشتراكية أقرب إلينا من الدول الاسلامية التي تربطنا بها أوثق الروابط اللغوية والثقافية والتاريخية

وغيرها ـ حتى من خلال الطرح القومي نفسه! ـ الأمر الذي يلقي الضوء على حقيقة الدعوة القومية التي رفع أصحابها هذا الشعار، أو ذهبوا إلى هذا الربط.. وأنها ليست من القومية والعروبة والتاريخ العربي والثقافة العربية والشخصية العربية بسبيل! وأنها لم تكن تعني عندهم سوى تجاوز الاسلام والتعفية على آثاره، والتحلّل من روابطه.. وهجر ثقافته.. إلى هذه العقائد الفاسدة والأديان المنحولة!

ونأمل، بهذه المناسبة، أن يكون في السقوط الاشتراكي الماركسي، فكراً ونظاماً، أو ديناً ودولة!!، وفي هذه الصحوة الدينية والعودة إلى الجذور، في المجتمع الروسي وسائر المجتمعات الأوروبية والانسانية، ما يحمل هؤلاء الدعاة على العودة إلى المضمون العقائدي الاسلامي للوعاء القومي. ويبدو أن مثل هذه الرحلة قد بدأت بالفعل.

ب ـ أما الربط مع (العلمانية) فقد قُصد به إضفاء الصبغة اللادينية على القومية.. أو على الحركة العربية الحديثة ـ حركة النهضة ـ كما تُدعى في بعض الأحيان. والذي نفهمه من هذا الربط: عزل الاسلام في الحقيقة، نظراً لعلاقته الخاصة والوثيقة من دون الأديان الأخرى بالعرب والعروبة، ثقافة ولغةً وتاريخاً كما قدمنا. أو استبعاده من أن يكون أساساً للنهضة في العالم العربي والاسلامي مرة أخرى. ويؤكد ذلك من وجه آخر أن «التلازم بين القومية والعلمانية غير قائم علمياً ولا منطقياً، بل غير قائم تاريخياً

كذلك» على حد تعبير الدكتور كمال أبو المجد[1].

والبحث في هذا الاستبعاد، وفي مدى صلاحية العلمانية أو قدرتها على أن تكون أساساً جديداً أو «معاصراً» للنهضة في العالم الاسلامي، سواء اقترنت بالقوميّة أو قُرنتْ بها القومية أم لا، والبحث قبل هذا كلّه في العلمانية: هل تعني حقاً اللاّدينية أم لا، حتى يكون هذا الربط مفهوماً أو مبرّراً؟

كل هذا يفضي بنا إلى الحديث عن العلمانية في البحث التالي.

---

(١) جريدة القبس الكويتية، ص ١١ العدد رقم ٦٠٠٩ تاريخ ١٩٨٩/٢/٢ .

الإلحاد والعلمانية

جمعنا بين هذين العنوانين، أو بين هذين الموضوعين في العنوان لنفرق بينهما في الطرح والتناول، تمهيداً للتأكيد على أن العلمانية لا تعني الإلحاد، أو هجر العقيدة الدينية، أو مناصبة العداء للدين. أو لبيان أن العلمانية لم تكن تعني ذلك في تاريخ نشأتها في المجتمع الأوروبي، على أقل تقدير. وبغض النظر عن «الفكر العلماني» الذي ارتبط بالالحاد أو أفضى إليه في بعض صور الغلوّ في مراحل تاريخية لاحقة.

حول تاريخ التدين

من المعلوم أن تاريخ الانسان هو تاريخ التدين والايمان، وليس تاريخ الزندقة والالحاد. هذه هي الخلاصة التي ينتهي إليها الناظر في تاريخ التدين عند الانسان، والباحث في ينابيع النزعة الدينية في النفس الانسانية:

فقد وجدت في الماضي، وقد توجد في الحاضر أو المستقبل، كما يؤكد مؤرخو الأديان: أمم بدون علوم أو معارف أو فنون. ولكن لم توجد قط أمّة بغير دينٍ. قال بعض هؤلاء المؤرخين ـ بلوتارك ـ: «من الممكن أن توجد مدن بلا أسوار، وبلا ثروة، وبلا آداب، وبلا مسارح. ولكن لم يرَ إنسانٌ قط مدينةً بلا معبد، أو لا

يمارس أهلها الصلاة».

ولكن الذي ينبغي التأكيد عليه هو أن تاريخ الانسان إذا كان تاريخ الايمان. فإنه لم يكن تاريخ الايمان الحق أو الايمان الصحيح. ومن أجل ذلك تتابع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتعاقبوا، أي إن تتابعهم وتعاقبهم لم يكن من أجل إنشاء التصور الاعتقادي عند الانسان، أو من أجل زرع العقيدة في نفوس الناس، ولكن من أجل تصحيح عقيدتهم، وتعليمهم توحيد الألوهية والربوبية جميعاً، من وجه. ووضعهم أمام مسئولياتهم في اليوم الآخر، من وجهٍ آخر.

قلنا: إن تاريخ الانسان هو تاريخ الايمان، وليس تاريخ الإلحاد.. والذي نضيفه هنا: هو أن ذلك لم يمنع من وجود نزوعٍ إلى الإلحاد عند بعض الأفراد في جميع العصور، أو في بعض المجتمعات في بعض العصور.

والواقع أن الإلحاد لم يشكل تياراً إلا في بعض الأوقات لأسباب عارضة ترجع في أغلب الأحيان إلى الجهل أو الغرور، سواء أكان هذا الغرور بنوعٍ من القوة، أو بشيء من العلم.

يضاف إلى ذلك أن هذا التيار ـ على ضعفه وعدم قدرته على الاستمرار ـ لا يمكن فهمه أو تفسيره بعيداً عن المجتمع الذي وجد فيه، والبيئة التي ظهر فيها وما يسودها من قيم واعتبارات دينية مغلوطة.. ولهذا قال بعض الباحثين: إن الإلحاد ينبعث من

العقـائد التي تصادم الفطرة، وتعارض العقل، وتخالف العلم أو طبائع الأشياء!

ومن هنا فإننا نلاحظ أن الإلحاد لم يشكل تياراً في أي عصر من عصور الحضارة الإسلامية، فضلاً عن أنه لم يكن من لوازم أو معالم عصر النهضة في الاسلام ـ الذي بلغ ذروته في القرن الرابع الهجـري ـ وإنمـا جاء على لسان بعض الأفراد، والتصق لذلك بأسمـائهم!! فقـالـوا: «ابن الراوندي الملحد» وعدّوا ممن رُمي بالزندقة مع ابن الراوندي هذا: عبدالله بن المقفّع، وحَمّاد عَجْرد، وبشّـار بن بُرد. وليس كذلـك الحال في المجتمع الأوروبي في القـرن الثـامن عشـر ـ عصر فولتير ـ الذي عرف عندهـم بعصر الإلحاد! بل يمكننا القول إن الإلحاد كان يمثل في الأسماء السابقة في التاريخ الاسلامي خروجاً على عصر النهضة في الاسلام، ومحاولةً لتشويهه ومناقضته وتعويقه أو القضاء عليه ـ على عكس التـاريخ الأوروبي ـ الأمـر الـذي يدل على مدى ارتباط الزندقة بالشعوبية في تاريخ الحضارة الاسلامية.

أولاً: الإلحاد ومناقضته للفطرة الانسانية

يمكن تعريف الإلحاد بأنه إنكار لوجود الله تعالى، وبأنه ضد الإيمان، فإذا كانت حقيقة الإيمان تتمثل في الاعتقاد بالله واليوم الآخر ـ طرفا الإيمان أو ركناه الرئيسان ـ فإن الإلحاد يقوم بالمقابل على الجحود بالله، وعدم الإيمان بالخلود. أو هو بكلمة واحدة: يقـوم على إنكار الغيب (الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة). . ولهذا

ارتبط الإلحـاد بالقـول إن سبب الكـون يتضمنه الكون في ذاته، وارتبط بالفلسفة المادية والنظرة المادية إلى الكون والحياة والإنسان.

والإلحـاد يناقض الفطرة الإنسانية مناقضة حادّة! لأن نوازع الإيمـان أصيلة في النفس الإنسـانية وليست عارضـة. أو بعبارة أخرى: هي جزء من خلق الإنسـان وتكوينه، وليست من صنع المجتمـع أو التـاريخ، ولهذا فإن الانسان لو خُلّي وشأنه لاختار الإيمان. ولا شك في أن الإنسان من حيث هو مخلوق فيه دلالة على الخـالق جلّ وعـلا. قال النبي ﷺ: «كـل مولود يولَد على الفـطرة، حتى يكـون أبـواه همـا اللذان يهـوّدانـه أو ينصّرانه أو يمجّسـانـه» ولم يقـل النبي ﷺ: «أو يُسلمانه» لأن الإيمان بالله الواحد الأحد ـ جلّ وعلا ـ هو دلالة الفطرة والخلْق الإلّهي.

ولهذا كان ما يناقض هذه الفطرة من الإلحاد أو الشرك، هو الذي يأتي من البيئة والقدوة والمجتمع، ومن التعليم الذي يشوّه هذه الفطرة، أو يطمسها و«يرين عليها» ـ ويمثل ذلك كله الأبَوان بوجه خاص، أو في هذه المرحلة المبكّرة ـ قال تعالى: ﴿كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ ولكنه في جميع الأحوال لا يفسد «طبيعتها» أو خلْقها. . بحيث لا تستجيب للهداية، أو لا تعود إلى دلالتها الإيمانية التوحيدية مرة أخرى، ولهذا قوبلت «التزكية» في قوله تعالى: ﴿ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلحَ من زكّـاهـا، وقد خابَ من دسّاها﴾ بالتّدسية، أي التغطية

ـ والرَّين! ـ ولم تقابَل بالهبوط أو النزول. . فضلاً عن المسخ، أو التحوير والتبديل، وعلى هذا فالفطرة ليست حيادية، ولكنها إلى الإيمـان بالله تعالى أقرب. والالحاد ليس عقلاً أو علماً أو منزعاً إنسانياً، ولكنه تكلّف ومناقضةٌ وتشويه! فإذا لاحظنا أن النبي ﷺ لم يقل كذلك: «أو يُلحدانه» ـ أو يُزندقانه مثلاً! ـ أدركنا كذلك أن هذه المناقضة لا تبلغ في الغالب، أو عبر العصور الإنسانية بعامّة، حد الخروج عن الدين، أو إلى ساحة لا يكون فيها الإنسان بغير دين. . ولكن سوف يخـرج به المجتمـع أو التعليم إلى عقيدة فاسدة، أو مذهب محرَّف أو دينٍ مدخول!

وتأتي الآية التالية محكمة الدلالة على هذه النقطة، وعلى ما تجب الإشارة إليه في باب الفطرة والتدين بوجه عام، قال تعالى: ﴿فأقِمْ وجهَك للدِّين حنيفاً، فطرةَ الله التي فطَر الناسَ عليها، لا تبديلَ لخلْق الله ذلك الدِّين القيِّمُ ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون﴾ [سورة الروم: ٣٠]

١ ـ فقد أمرَ الله تعالى نبيّه ﷺ ـ وكلَّ مكلَّفٍ من بعده ـ بإقامة وجهـه للدين، أي بأن يتجـهَ ويلتفت تلقاء الدِّين ونحوه. وإقامةُ الـوجه ـ كما يقول المفسّرون ـ «هو تقويم المعتقد، والقوّة على الجدّ في أعمال الدين. وذكر الوجه لأنه جامعُ حواسّ الانسان»(١) ولأن إقامة الوجه إنما تعني في الحقيقة: القصد والتوجه، بل إن كلمة التوجه إنما جاءت من انصراف الإنسان بوجهه نحو الشيء!

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٤٥٢/١١ .

عليك إذن بالدين، فانصرف إليه، وتوجه نحوه!

والسؤال الآن: لماذا الدّين؟ والجواب: لأن هذه النزعة أصيلة وخالدة في النفس الإنسانية، ولأن في تلبيتها تلبية لتطلع إنساني، يقول الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله:

وفي الطبع الإنساني جوعٌ إلى الدين كجوع المعدة إلى الطعام. والإنسان الذي يرفض فكرة الدين كالمعدة التي ترفض الطعام الجيد لا بسبب رداءة الطعام، ولكن بسبب ضعف المعدة».

ويقول أيضاً: «إذا كان البعض ينكر فكرة الدين والعقيدة، ويتجاهل أهميتها، فإن ذلك **لا يعود إلى رداءة العقيدة (أو الاعتقاد)**، وإنما يعود إلى ضعف التكوين العقلي فيه» أي أن الأمر من باب الشذوذ والاستثناء، أو من باب الضعف الطارىء ـ أو الإضعاف ـ بسبب المرض الذي لحق بالانسان من جراثيم الشبهات والشكوك الخارجية أو الطارئة. والتي يمكنه لذلك ـ كما أشرنا ـ أن يتعافى منها في يوم من الأيام.

ويقول الفيلسوف آرنست رينان: «إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبّه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي ـ الإلحاد ـ الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية».

وجاء في معجم لاروس للقرن العشرين «إن الغريزة الدينية مشتركة بين جميع الأجناس البشرية، حتى أكثرها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وأن الاهتمام بالمعنى الآلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية».

قلت: فإذا كان الدين كذلك، فلا بد من طلبه والتوجه إليه، ولا بد من التسليم معه بأن الإلحاد واحد من الشرور أو من الأمراض الطارئة على النفس الإنسانية، وأنه ليس من طبيعتها ولا متأصلاً فيها، أو بعبارة أدق: ليس من طبيعتها حين تبقى هذه الطبيعة على حالة الصحة والاستقامة والاعتدال!.

٢ ـ **أما الحنيفية**، فيراد بها في الآية ـ **ثانياً** ـ الميل عن جميع الأديان المعوجّة أو الباطلة ـ التي وقع أصحابها في الشرك أو عبادة الأوثان ـ إلى الدّين الحق.. دين التوحيد. لأن الحنيف مأخوذ من الحَنَف، وهو الميل، أي عليك أن تختار، وأنت تتجه نحو الدين، دين التوحيد مائلاً عن كل ما عداه! كما فعل إبراهيم عليه السلام حين توجه إلى فاطر السموات والأرض.. ورفض ما كان عليه قومه من الشرك وعبادة الأصنام، حتى إن بعض المفسرين ذهب في تفسير الحنيف مباشرة إلى أنه دين إبراهيم لأنه عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وكان لا يعبد إلا الله تعالى. وقيل: الحَنف في اللغة: الاستقامة ـ فهو من الأضداد ـ قالوا: والحنيف في الدين: المستقيم على التوحيد، وعلى جميع طاعات الله عز وجل. ويبدو أن المعنى أو التفسير الأول أرجح، وإن كانت النتيجة واحدة أو

متفقة في نهاية المطاف.

٣ ـ ثم توضح الآية ـ **ثالثاً** ـ أن هذا الدين المطلوب هو الفطرة في الواقع وحقيقة الأمر، لأنها ـ أي الفطرة ـ جاءت في الآية في موضع الدين، وفي معنى المبدل منه، والحالّ محلّه؛ ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله**﴾ أي دين الله، وإن كانت كلمة «فطرة» تعرب في الآية من جهة الصناعة النحوية: نصباً على المصدر، أو نصباً بفعل مضمر تقديره: اتبع والزم فطرة الله.

والمعنى في جميع الأحوال: أقم وجهك للدين الحنيف ـ أو الذي هو الحنيفية ـ والذي هو كذلك أو في الوقت نفسه فطرة الله. وقد أكدت الآية هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿التي فطر الناس عليها﴾ أي أن الناس أو البشر مخلوقون على هذا النحو الايماني، مطبوعون عليه، لأن هذايمثل نزعة أصيلة ثابتة في نفوسهم. وإن كانت تعرضهم أو تعرض لهم العوارض، والتي ذكر النبي ﷺ الأبوين مثالاً لها، أو تنبيهاً على أوّلها.. وربما أخطرها كذلك. وهكذا تأتي كلمات: «الدين» و «الفطرة» و «الخلق» في الاستعمال القرآني في هذا السياق مترادف أو كالمترادف! قال ابن عطية في تفسير الفطرة: «والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخِلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدودة مهيَّأة لأن يميّز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربّه جلّ وعلا، ويعرف شرائعه، ويؤمن به، فكأنه تعالى قال: أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فطَر البشر،

لكن تعرضهم العوارض . . »[1] .

٤ ـ وأمر بارز رابع تدل عليه الآية الكريمة، يتمثل في الإجابة عن سؤالٍ أو اعتراضٍ فحواه: ألا تتحول هذه الفطرة وتتبدل، أو «تتطور» ـ كما يقال ـ في قادمات الايام، وبعد دهور وعصور. . بحيث تستغني عن الدين والإيمان؟ أو بعبارة أخرى أو سؤال آخر: ألا تستغني هذه الفطرة عن الدين حين يرتقي ويتقدم (علم) الانسان، فيرتقي به إلى الفضاء، أو يحمله إلى الجوزاء؟ أو يصل به إلى اللجج وأعماق البحار؟ أو حين يقفه على طائفة كبيرة من قوانين الطبيعة، وسنن الانسان؟ . . . الجواب: كلاّ، والله تعالى يقول: «لا تبديل لخلْق الله» أي لا تبديل لفطرة الله التي خلق عليها الانسان. . . إنها لا تتبدل من تلقاء نفسها، بفعل التطور أو زيادة المعلومات والمعارف، ولا تبديل لها من جهة الخالق، كما أعلمنا سبحانه وتعالى في هذه الآية.

٥ ـ وأخيراً: تأتي كلمة «الدين» في الآية الكريمة حالّةً محلّ «الفطرة» وفي معنى المبُدلة منها أو المعطوفة عليها: «ذلك الدّين القيم» ـ أي وليس: تلك الفطرة المستقيمة ـ فعادت للحديث عن الدين الذي صُدّرت به الآية، وذلك للتأكيد القاطع على أن دين التوحيد الذي جاء به محمد ﷺ يكافىء الفطرة الانسانية ويساويها، ويلبّي جميع أشواقها وتطلعاتها. . . وأنه لا بد منه للحياة الانسانية السويّة.

---

(١) المحرر الوجيز ١١/٤٥٣ .

ثانياً: الدين ليس مرحلة

يقتضينا الواجب العلمي أمام هذا التأكيد على أن التدين خلقٌ وفطرة، وأن «الدين» مطلب إنساني عام في مختلف العصور، وعند جميع الأمم.. أن نشير إلى الخطأ الجسيم الذي وقع فيه من ظنّ أن التدين مرحلة من مراحل الفكر الانساني، أو أنه لا يعدو أن يكون مرحلة من المراحل التي مرّ بها هذا الفكر عبر تاريخ البشرية الطويل. وقد أطلقوا على هذه المرحلة: مرحلة الدين أو الفلسفة الدينية، قالوا: وقد ذهبت هذه المرحلة لتعقبها وتحلّ محلّها: مرحلة الفلسفة العقلية.. قبل أن تأتي في أعقابها أخيراً: الفلسفة التجريبية أو الحسيّة أو المنطق الوضعي: (الدين ـ العقل ـ الحسّ).

هذا الخطأ الجسيم يمكن أن يُعزى إلى جهل أصحابه بأن هذه المراحل ليست مراحل انسانية، ولا تعبر عن تاريخ الفكر الانساني، كما لا تعبر بطبيعة الحال عن حقيقة الانسان، ولكنها تعبير عن تاريخ تطور الفكر في المجتمع الأوروبي وحده دون سواه!

وإذا كان الأوروبيون يتحدثون عن هذه المراحل بوصفها مراحل تنطبق على جميع الأمم والشعوب ـ على عادتهم في تعميم

الأفكار والمصطلحات ـ أو بوصفها المراحل التي وقفوا عليها من خلال تاريخهم على أقل تقدير؛ فإن المشكلة بالنسبة إلينا تكمن في التعميم الذي وقعنا فيه نحن ـ وربما شعوب أخرى كذلك ـ من خلال النقل والترجمة، وتقليد ما يقولوه الآخرون!

ومن المعلوم أن الاسلام ينظر إلى هذه النواحي أو الأبعاد الثلاثة على أنها أمور متجاورة في النفس الانسانية في الوقت الواحد. . وليست أدواراً متعاقبة يذهب دور أو ينقضي دورٌ ليحلّ محلّه ويأتي في أعقابه دور آخر، فالانسان حسّ وعقل وروح. . بل إن الشخصية الانسانية السويّة أو بمعناها الحق لا تتحقق أو لا تبرز في نظر الإسلام إلا حين يستجيب الإنسان لمطالب هذه الجوانب الثلاثة في وقت واحد. ونشير في هذا السياق إلى أن العقيدة الاسلامية تستجيب على نحو شامل ومتوازن ـ وإيجابي بطبيعة الحال ـ لهذه الجوانب، ولا تهمل واحداً لحساب آخر! وإذا صادف أن المجتمع الأوروبي لظروف خاصة تعامل مع هذه الأبعاد ـ نظرياً وفلسفياً ـ على أنها أدوار متعاقبة لا أمور متجاورة، فليس معنى ذلك أن يتابعهم جميع الناس، أو جميع الأمم والشعوب على هذا الخطأ والفساد. . وبخاصة في المجتمعات الإسلامية التي لا يجهل فيها مثقف، ولا عاميّ، أن العقيدة الإسلامية ـ أو الفلسفة الدينية الاسلامية ـ لا تتعارض مع العقل، ولا تهمل المادة أو الحسّ. . فضلاً عن تعاملها المعهود مع الروح.

ومن أجل تأكيد أن هذا تعبير محضٌ عن «واقع» تطور الفكر

في المجتمع الأوروبي ، وأنه لا يمكن أن يكون «انسانياً» ينطبق على جميع الشعوب والأقوام . . نقول : إن هذه الأمور المتجاورة في الانسان الواحد ـ أو الجوانب والأبعاد المختلفة ـ لو جاز أن تكون أدواراً متعاقبة ، فينبغي تصورها أو تصور وقوعها ، في تاريخ الفكر الانساني ، على نحو معاكس لما كان عليه الحال في «واقع» المجتمع الأوروبي ، أي : الحسّ ، ثم العقل ، ثم الروح ، لأن هذا هو الترتيب الذي يتلاءم مع تطور الفكر البشري و «ترقّية» من أدنى الدرجات إلى أعلاها! فالنظرة الواقعية ـ كما يقرر الأستاذ العلّامة الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله ـ تمثل مرحلة الطفولة النفسية ، لا مرحلة النضج والكمال ، لأن مبعثها الحاجة العاجلة وضرورة الحياة اليومية ، ولأنها من معدن القابلية والانفعال ، لا من معدن الفاعلية والإنشاء . ولهذا فهي تقع في أول الطريق لا في نهايته ! !

«أما نظرة التعليل بالمعاني العامة فإنها تنبثق في النفس على أثر ذلك ، متى استيقظت ملكة التجريد والتعميم في التصورات والأحكام ، فلا يكتفي الذهن حينئذ بجمع الحوادث المترابطة في سلسلة متعاقبة ، كما تجمع الأعواد في الحزمة ، بل يحاول ربطها برباط معنوي تدور في فلكه ، ويكون كالسلك الداخلي الذي ينتظم حبات العقد» ويؤكد الدكتور دراز أن المعارف الإنسانية لا تستحق اسم العلم حتى تأخذ بنصيب قليل أو كثير من هذا التجريد والتعميم الذي يضع كل مجموعة في نطاقٍ يضبطها ، تحت لقب

مشترك يسهل به استحضارها، ويكون لها بمثابة قانون كلّي تعللّ به جزئياتها. وهذا هو دور العقل أو عمله. وتبقى بعد ذلك النظرة الروحية أو الدينية، وواضح أنها لا تولد في النفس إلا حين يتسع أفقها، فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه، فهي أوسع النظرات مجالاً، وأوسعها مطلباً.

قال: «وهكذا ينقلب الترتيب الذي تخيّله الفيلسوف ـ أوغست كونت ـ رأساً على عقب، وتعود الحاجات النفسية الثلاث إلى أوضاعها الطبيعية المعقولة: حاجة الحسّ، فحاجة العقل القانع، فحاجة العقل المتسامي»[1].

وأياً ما كان الأمر، فإن الذي نضيفه هنا: هو أن هذه المراحل، أو هذا التقسيم المدرسي للمعرفة أو لعصور الفلسفة والفكر، لم يؤثر على واقع الحياة والمجتمع الأوروبي، الذي بقي على ولائه لعقيدته الدينية على كل ما فيها من تناقض، ومن مخالفةٍ للعقل والعلم، بل الذي بقي الكثير من فلاسفته ومفكّريه على هذا الولاء، محاولين تفسير هذه العقيدة على نحو لا يناقض العقل، من أجل أن يلبّوا في أنفسهم الحاجة إلى الايمان، والرغبة في عدم مناقضة العقل في الوقت نفسه، يقول «جورج سينتيانا» ـ الاسباني المولد ١٨٦٣ ـ «إن الكاثوليكية أجمل ما في الوجود، على شرط

---

(١) الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، للدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله تعالى. ص٨٧.

ألا تُفهم بتفسيرها الحرفي، وإلا لكانت متناقضة»! ويقول في الايمان ـ أي في الإيمان المسيحي الذي انتهى إليه ـ «إنه غلطة جميلة اكثر ملاءمة لنوازع النفس من الحياة نفسها»[1] قلت: وما كان اكثر ملاءمة للنفس من الحياة ذاتها لا يكون غلطة!! سواء أكانت جميلة أم قبيحة.. ولكنّ المشكلة في «عناصر الايمان» أو في العقيدة المغلوطة نفسها التي انتهت إلى الفيلسوف الإسباني الأمريكي المشهور.

(١) قصة الفلسفة الحديثة، تأليف زكي نجيب محمود وأحمد أمين، ص ٤٠٢.

ثالثاً: العلمانية في المجتمع الأوروبي
النشأة والمفهوم

١ ـ النشأة والتعريف:

مصطلح «العلمانية» ترجمة ـ غير دقيقة ـ لكلمة: "Secularism" الانجليزية. وقد قالت دائرة المعارف البريطانية في تعريفها ـ أو في شرح شرح هذه الكلمة أو المادة ـ «هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف توجه الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها. وذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا، والتأمل في الله واليوم الآخر، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت ال "Secularism" ـ العلمانية ـ تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الانسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالانجازات الثقافية والبشرية، وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة. وظل الاتجاه إلى العلمانية "Secularism" يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله، باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادّة للمسيحية»[1].

وجاء في المعجم الدولي الثالث الجديد في بيان هذه الكلمة أو المادة ـ Secularism ـ «اتجاه في الحياة، أو في أي شأن خاص،

---

(١) عن كتاب الأستاذ الشيخ سفر الحوالي: العلمانية، ص ١٢ .

يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب الا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعاداً مقصوداً، فهي تعني مثلاً: السياسة اللادينية البحتة في الحكومة. وهي نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي، دون النظر إلى الدين»[١]

يتضح من هذين التعريفين - وغيرهما كثير - أن (العلمانية) نسبة إلى العالم (بمعنى الدنيا) أو العالمية "Secularism"، وإن كانت نسبة على غير قياس، لأنها جاءت بزيادة الألف والنون، كما قالوا: نوراني وروحاني. ولكنها ليست نسبة إلى (العلم Science) على الرغم من أن المواقف المتشددة التي اتخذتها السلطات الكنسية ضد العلماء، والتي بلغت حد التحريق، كان لها تأثير كبير أو دور حاسم في نشوء العلمانية في أوروبا. ولهذا فقد كان الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله يدعوها بـ «الدنيوية» ولا يطلق عليها اللفظ السابق المشهور أو المتداول في اللغة العربية.

والوقع أن النسبة إلى العالم - أو الدنيا بعبارة أدق - جاء، أو غلب من خلال المبدأ الصريح الذي أشار إليه أصحاب المعجم المذكور، والقائل بأن «الدين أو الاعتبارات الدينية يجب ألا تتدخل في الحكومة» أو من خلال ما أسموه: «السياسة اللادينية في

(١) المصدر السابق ص ١٣.

الحكومة» ويمكن ترجمة هذا المبدأ بأنه إبعاد الكنيسة عن شئون السياسة والحكم، أي عن «السلطة الزمنية» كما دُعيت. علماً بأن هذا المبدأ قد عُرف في الفكر الاسلامي ـ على نطاق واسع ـ بـ «فصل الدين عن الدولة».

وقد أسهم هذا الفصل ـ أو هذا الإبعاد ـ في تحديد معنى «الدين»، حيث قصره الأوروبيون على التوجيه الروحي للأفراد (وللكنيسة أن تمارس هنا حقها في السلطة الروحية) كما حدد عندهم معنى «الدولة» ـ أو الحكومة ـ فصارت تعني تنظيم العلاقات بين الأفراد، ودُعيت هذه العلاقات بالعلاقات الدنيويه، أو اللاكهنوتيه، في مقابل تلك العلاقات الدينية أو الروحية. ولهذا فإن العلمانية لا تعني اللادينية، ولكن تعني اللاكهنوتية! خصوصاً إذا لاحظنا أن الغرض من الفصل السابق كان «اتقاء الاصطدام مع الكنيسة، وليس محاولة تخريب قيمها الدينية» على حدّ قول الأستاذ الدكتور محمد البهي رحمه الله[١].

أقول: هذه القسمة أو المقابلة بين «الديني» و «الدنيوي» هي فحوى العلمانية وخلاصتها! فالعلماني "Secular" ـ الأمر أو الشأن ـ هو ما يتعلق بالحياة الدنيوية وليس له قداسة، يقابله الأمر الديني أو الشأن الكنسي. ومنه: الموسيقى الدنيوية مقابل الموسيقى الدينية أو الكنسية، والمدرسة الدنيوية أو «المدنية» مقابل المدرسة

---

(١) الاسلام في حل مشكلات المجتمعات الاسلامية المعاصرة، ص ١٧ .

الإكليركية . . . فها هنا إذن ثنائية : دولة ـ وكنيسة . مدني ـ وديني . وهنا كذلك : حياة دنيوية غير مقدسة ، وحياة أخرى كنسية لها قداستها[1] .

إذا رجعنا إلى مبدأ فصل الدين عن الدولة ، أو إبعاد الكنيسة عن التصرف في شئون السياسة والحكم ، لنقف على بواعثه الأخرى ـ في تاريخ المجتمع الأوروبي ـ بالإضافة إلى المواقف المتشددة التي اتخذتها الكنيسة ضد «العلماء» ـ أو ضد علماء الدنيا ، إن صح التعبير ـ فإن أهم باعث أو سبب تجب الاشارة إليه ـ فيما وراء التسلط الديني وبيع صكوك الغفران! ـ هو: الحلف السياسي/الاقتصادي الذي قامت به الكنيسة مع الأباطرة ورجال الاقطاع . حتى كان الباباوات هم الذين يتولون تتويج الملوك والأباطرة ـ وعزلهم ـ وحتى كانت الأملاك الاقطاعية والأوقاف والضرائب تشمل معظم الأراضي ، فضلاً عن امتلاك الكنيسة لعشرات الألوف من الأرقاء أو الأقنان!

فالواقع أن كلا هذين الأمرين أو السببين الكبيرين أظهرا الحاجة الماسّة إلى الفصل السابق . . وإلى ما تضمنّه هذا الفصل وأفضى إليه من الثنائية المشار إليها . ولهذا فإن أبرز ما يلخص العلمانية (أو الدنيوية) على الرغم من كثرة «ثنائياتها» الطريفة هذه أمران ، هما : فصل الدين عن الدولة . وفصل التعليم عن الكنيسة .

---

(١) الدكتور البهي رحمه الله : المصدر السابق .

وهذا يمكن فهمه تماماً من خلال أنها ـ أي العلمانية ـ كانت موقفاً أو «رد فعل» على أوضاع الكنيسة وممارساتها وطغيانها في المسألتين السابقتين: التحالف مع الأباطرة ورجال الاقطاع. ومقاومة تعليل العلماء لظواهر الطبيعة واكتشاف سننها.

ونورد فيما يلي شرحاً وتحليلاً موجزاً لكلٍ من هاتين النقطتين، يوضح المفهوم الحقيقي للعلمانية في أوروبا:

٢ ـ فصل الدين عن الدولة:

لم يكن هذا الشعار يعني على الصعيد الأوروبي اكثر من إقصاء الكنيسة ـ أو محاولة إقصائها، وتقليم أظفارها ـ عن التدخل في شئون الحكم والدولة. . تمهيداً لرفع عدوانها عن الناس، وتحكمها في اقتصادهم ومعاشهم وأمر حياتهم اليومية. ولم يكن يعني طرح الدين والقيم المسيحية عن الحياة! على الرغم من الغلوّ الذي وقع فيه بعض العلمانين في وقت لاحق.

ولهذا لم يكن من صواب الرأي أن يقال ـ من وجهة نظرنا ـ إن الحضارة الأوروبية المعاصرة قامت على أنقاض الكنيسة، ولكن الحق أنها قامت على أنقاض السلطان الكنسي. والفرق بعيد جداً بين الكنيسة ، أي المسيحية أو دين الكنيسة، وبين السلطان الكنسي، أي سلطة رجال الدين. ويمكن تعريف هذا السلطان وتلخيصه في نهاية العصر الأوروبي الوسيط بأنه: سلطة رجال الدين (الاكليروس) التي تحالفت كما قلنا مع الملوك ورجال

الاقـطاع من جهة. والتي قاومت اتجاه العلماء نحو تعليل ظواهر الـطبيعة واكتشاف سننها، من جهة أخرى. وعلينا أن نفهم شعار فصـل الـدين عن الدولة، وسائر شعارات أو مضامين الدعوة إلى العلمانية في أوروبا، من خلال **محاولة الخروج عن الكهنوتية أو سلطة رجال الدين، ببعديها أو شطريها السابقين.**

أمـا الدين أو العقيدة الدينية فقد كانت ولا تزال عنصراً لازماً لكـل حضـارة من حضـارات التـاريخ، بوصفهـا «عـامـلاً مركباً» لعنصـري: الـطبيعـة والانسان، أو لعناصر الحضارة الثلاثة التي ذكرها الاستاذ المفكّر مالك بن نبي رحمه الله، على النحو التالي: (إنسان + تراب + وقت = حضارة) يقول الأستاذ مالك: «فالحضارة لا تنبعث ـ كما هو ملاحظ ـ إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها. ولعله ليس من الغلو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية نواة الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية»[1].

ولـم تكن الحضارة الأوروبية بدعاً ـ أو استثناء ـ من حضارات التاريخ حتى تستغني عن النصرانية، أو عن دينها المسيحي! بل إنهـا لـم تتخل عنها أو عن مُثُلها.. حتى في أشد صور المناقضة (العقلية) أو الفكرية التي نمت حتى وصلت إلى هذا الحد في ظل

---

(١) راجع كتاب شروط النهضة للأستاذ مالك بن نبي، ص ٤٥ طبع دار الفكر بدمشق

المناخ العلماني السابق! بدليل أن قيم المسيحية الثقافية التي واكبت الحضارة الأوروبية لا تزال واحدة، على الرغم من كل المحاولات التي قادتها الماركسية وبعض المذاهب الاشتراكية الأخرى! ويمكن أن نفهم هذه المذاهب ـ في هذا السياق ـ على أنها «البنت غير الشرعية للمسيحية» وهو الوصف الذي خلعه الفيلسوف «نيتشه» على الاشتراكية! ولا تعدو الماركسية أو الشيوعية أن تكون مجرد «أزمة» للحضارة الأوروبية المسيحية، كما عبّر الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله. . ولا يمكن عدها «حضارة» مستقلة أو مفصولة عن دورة هذه الحضارة، يقول الاستاذ مالك: «ومؤلفات ماركس وإنجلز تُخفي ـ في الواقع ـ التكوين الحقيقي للظاهرة الشيوعية بفصلها ظاهراً عن دورة الحضارة المسيحية» ويقول: «والحال أنها لا تجد تفسيراً إذا ما ضربنا صفحاً عن الحضارة المسيحية، تلك التي تكون ـ عند تحلّلها ـ سطح التربة الخصيب، حيث استمدت الفكرة الماركسية حيوتها. فنحن على هذا مضطرون إلى أن نعد الشيوعية «أزمة» للحضارة المسيحية»[1].

ومعنى ذلك أن الحضارة الأوروبية سوف تتخطى هذه (الأزمة) في وقتٍ من الأوقات! فكرياً أو عقائدياً حين لا تقوى الماركسية على إلغاء دور (الدين) أو العقيدة الدينية في الأنفس، أي في

(١) المصدر السابق، ص ٥٤ مع الاشارة إلى أن الطبعة الفرنسية لهذا الكتاب القيم تمت في عام ١٩٤٨ .

أحداث التاريخ . وسياسياً ـ واجتماعياً ـ حين تفشل في سلخ بعض الشعوب الأوروبية عن جسم الحضارة الأم ، وعندها يبدأ هذا الجسم باسترداد عافيته ، في حين تعود «ابنته» ـ بحسب عبارة نيتشه ـ للانتماء (الشرعي) إليه مرة أخرى .

قلت : وهذا ما يمكن ملاحظته بسهولة ـ الآن ـ فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي وأوروبة الشرقية حتى وقت قريب .

٣ ـ مقاومة تعليل ظواهر الطبيعة واكتشاف سننها

لقد صُورت هذه النقطة ، أو المسألة على أنها صراع بين الدين والعلم في التاريخ الأوروبي ، بل بلغ الأمر ببعض الباحثين إلى تصوير هذا الصراع على أنه صراع بين الدين ـ أي دين ، أو كلّ دين ـ وبين العلم ! علماً بأن المسالة في التاريخ الأوروبي نفسه لا تعدو أن تكون خطأً جسيماً وقع فيه «رجال الدين» المسيحي ـ الاكليروس ـ حين أقحموا أنفسهم في الدفاع عن نظريات وآراء عن الكون والطبيعة لا تستند إلى علم وبرهان ، ولا تقوم على «تجربة» . وأثاروا في وجه العلماء معارضة جدلية دينية ـ أي تقوم على مبدأ التحريم والتحليل ، وإطلاق الفتاوى ومصادرة الآراء ، ولا تقوم على الملاحظة والتجربة ، ومعارضة نظرية علمية بأخرى مثلها ـ وتعرضوا لبعض هؤلاء العلماء بالاضطهاد والقتل !

تقول دائرة المعارف البريطانية : «إن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية رفضت أي نتيجة خالف فيها العلم الانجيل» . ويقول

موريس بوكاي: «ففي الوسط النصراني وعبر قرون كثيرة بادرت سلطات مسؤولة بمعارضة تطور العلوم، واتخذت هذه السلطات ضد العلماء الذين كانوا يحاولون تطوير العلوم الاجراءات التي نعرفها، تلك التي دفعت بعض العلماء إلى المنفى تلافياً للموت حرقاً، أو إلى طلب المغفرة بتعديل مواقفهم وبالتماس العفو».

أما لماذا الحرق؟ والجواب: لأنه الوسيلة لتطهير الجسد من الأفكار التي اعتِبرتها الكنيسة هرطقة أو خروجاً عن الدين، مثل القول بكروية الأرض، أو أنها ليست مركز الكون، أو أنها تدور بين الكواكب ـ وهي الآراء والنظريات التي قام العلماء بإثباتها بالتجربة والمشاهدة والحساب ـ وقد نسبت الكنيسة هذه الآراء إلى الشيطان! لأنها خالفت ما استقر عندها من أفكار أرسطو وبطليموس القديمة! قالت الكنيسة: والأجساد التي يسكنها الشيطان لا تتطهر الا بالحرق وفق الطقوس الدينية، لمصلحة أصحابها!![1]

وقد قامت الكنيسة بإحراق العالم الفلكي «جوردان برونو» سنة ١٦٠٠ بسبب إصراره على أن الأرض ليست مركز الكون، وجعلته بذلك عبرة لمن يعتبر. أو جعلت مصيره هذا «أمثولة ما انفكت ترتسم في جباه العلماء سنين طويلة» على حد تعبير بعض المؤرخين، فقد جاء في حكم المحكمة التي مَثل أمامها في روما

---

(١) انظر مقالة بعنوان «غاليلي» للمؤرخ الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى، في صحيفة القبس الكويتية، ص ٢٦، العدد ٥٨١٣ تاريخ ١٨/٧/١٩٨٨.

سنة ١٦٣٢ أستاذ الرياضيات والميكانيك والفلك: «غاليلي» بسبب قوله بدوران الأرض، ما يلي: «إن نظرية دوران الأرض بعيدة منطقياً، وخطأ فلسفياً، وهرطقة دينياً. والقول بها يؤدي إلى مصير جوردان برونو»[1] وقد تمكن «غاليلي» من تأييد هذه النظرية التي سبقه إليها «كوبرنيق» عام ١٥٤٣ من خلال «التلسكوب» الذي توصل إلى صنعه بعد موت سلفه «برونو» ببضع سنوات!

وغني عن البيان أن هذه «الحيثيات» تؤكد فكرة «المعارضة الجدلية أو الكلامية أو الدينية» التي كانت تقوم في وجه العلماء، والتي أشرنا إليها قبل قليل.

وأمام هذه المعارضة، من جهة. وتلك الممارسات الرهيبة التي ذهب ضحيتها الكثير من العلماء، من جهة أخرى. . كان لابدّ للعلم التجريبي المستند إلى الدليل الحسّي والبرهان المادي وأرقام الحساب من أن يشق طريقه منتصراً في النهاية. . . ولكنه لم يصل إلى ذلك، أو إلى هذه النتيجة في نهاية المطاف إلا من خلال المبدأ الثاني ـ الذي قلنا إنه يلخصّ العلمانية ـ وهو فصل التعليم عن الكنيسة. والذي كان يعني ـ كما يقول الدكتور محمد البهي ـ «نزع حق المؤسسة الكنسيّة في الاشراف على التعليم العام مع ترك الحرية لها في رعاية شؤون التعليم الديني» كما كان يعني بالضرورة، في باب التعليم «الدنيوي» أو الفلسفة الطبيعية ـ أي

(١) المصدر السابق.

التعليم العام ـ التأكيد على الوقوف عند الحقائق أو النظريات التي تؤيدها التجربة أو يقرّها العلم!

وتبقى هنا مسألتان أو نقطتان هامّتان: الأولى: موقف العلمانية ـ أو الدنيوية ـ من الايمان الغيبي أو العقيدة الدينية. والنقطة الثانية: مدى نجاح «الثقافة العلمانية» التي أفرزها عصر النهضة الأوروبية في الانقطاع عن المسيحية، وعن رواسبها وجذورها في المجتمع الأوروبي. أو بعبارة أخرى: مدى انفصال الفكر الأوروبي الذي ولد في ظل العلمانية، أو جاء تعبيراً عنها ـ في معظم الأحيان ـ عن الدين المسيحي!

٤ ـ موقف العلمانية من العقيدة الدينية

يمكن القول، من الوجهة النظرية المنهجية، إن أقصى ما يدل عليه موقف العلمانية إزاء الأمور المتعلقة بالايمان الغيبي أو العقيدة الدينية المسيحية، يتلخص في تأكيد قصر الدين على الدائرة الفردية، بحيث لا يتعدى حدود العلاقة بين المرء وربّه ـ سبحانه ـ من جهة. وفي الزعم بأن التسليم بحقائق «الدين» أو بأخباره ومعتقداته، إنما يتم من غير طريق المعرفة بحقائق الكون وسنن الطبيعة! أي من غير طريق «العلم» ـ في هذه «الثنائية» العلمانية التي أشرنا إليها ـ فإذا كان «العلم» يثبت بالعقل والتجربة، فإن «الدين» يثبت عن طريق الفطرة، أو من خلال نصوص الكتاب المقدّس.. أو التسليم بما وراء الطبيعة، أو من

أي طريق يراه المـرء ويختاره لنفسه، وقد ارتأى الفيلسوف الكبير «كـانْت» على سبيل المثـال، في ظل هذا المنـاخ، أو في ضوء التعارض القائم بين العلم والدين، أو بين العقل والدين، أن يسلّم بالدين ـ المسيحي ـ وبما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) من خلال ما أسماه «العقل العملي» فزعم أن العقل نظري وعملي، وأن وظيفة العقـل النـظري التعـامل مع الطبيعة، أما العقل العملي فوظيفته الايمـان، يقول كانْت: «لا يجوز أن يقام الدين على أساسٍ من العقل النظري» ويقول أيضاً: «لا يمكن أن يقوم الدين على أساس من العلم والعقل، ولكنه يجب أن يرتكز على دعامة من الأخلاق»! وغني عن البيان أن «كـانْت» يتحـدث عن الدين المسيحي الذي انتهى إليه، لأنه خلط في حديثه هذا بين الدين والكنيسة، ورجال الدين، والطقوس الكنسية. . . الخ[1]. وكأنه في خلطه هذا يومىء إلى طرفٍ من مبررات العلمانية التي أشرنا إليها.

وعلى الرغم من هذا الموقف المنهجي الذي اتخذته العلمانية من الدين والعقيدة المسيحية، والذي يمكن وصفه بأنه كان موقفاً حيادياً ـ وقد خلعت عن عاتقها سلطة الكهنوت ورجال الدين ـ إلى حدٍ كبير، فإن هذه العقيدة تعرضت دون أدنى شك لهزة وتشكيك عميقين، وقد ساعد على ذلك: شيوعُ بعض النظريات العلمية ـ وبخاصة نظرية التطور ـ في الأوساط الأوروبية عموماً، حتى عُرف

(١) قصة الفلسفة الحديثة، فقرة «نقد العقل العملي» ص ١٩٤ . وانظر الصفحات ١٩٨ ـ ٢٠٠ .

عصر فولتير عندهم بعصر الالحاد.. كما قلنا في مطلع هذا البحث.

ولكن ذلك ـ فيما نرجح ـ لم يكن أكثر من «رد فعل» موقوت، أياً كانٍ أمده.. من جهة. كما أنه بقي محصوراً في نطاق جمهور من الفلاسفة والمفكرين وعامّة المثقفين... ولم يتسع ليشمل جميع الأوساط.. فضلاً عن جميع الشعوب! من جهة أخرى.

بل إن الموقف السابق لفيلسوف مثل «كانْت» الذي يوصف عادة بأنه أبعد الفلاسفة غوراً! يدل ـ فيما نرى ـ على مدى حرص الفرد الأوروبي على الايمان والاعتقاد، ومدى شعوره بأهمية العقيدة الدينية وضرورتها أو ضرورة الدين للنفس الانسانية. فإذا لم يكن في وسع «العقل» أن يؤمن، أو يبرهن على عقيدةٍ أو ميتافيزيقا هي في الحقيقة ليست فوق العقل، ولكنها ضدّه ومناقضة له، لتجاوزها قانون السببية أو أحد قوانين العقل الفطرية ـ مثل عقيدة التثليث والعشاء الرباني! ـ فلا بأس بقسمة العقل عند «كانْت» حتى يقف بالعقل النظري عند حدود عالم الشهادة (الطبيعة / العلم) في حين يدع للعقل العملي ـ كما أسماه ـ مهمة الإيمان والاعتقاد، والتسليم بما وراء الطبيعة (عالم الغيب)!

وأياً ما كان الأمر، فإن الذي نرجحه هو أن العلمانية ـ في تاريخ المجتمع الأوروبي على وجه العموم ـ كانت موقفاً حيادياً بالنسبة للدين أو العقيدة المسيحية. ولا يمكن أن يُفهم من هذا

التاريخ أن العلمانية ذهبت إلى تحريم الايمان أو تجريم التدين!

وقد يتصور البعض أمام هذا الموقف الحيادي من الدين، أن أثـر المسيحية في الثقـافـة والفكر الأوروبي من ثم قد تلاشى أو اضمحـل! وهـو الأمر الذي لا نستطيع التسليم به، كما سنوضح ذلك في النقطة الأخيرة التالية:

٥ ـ أثر المسيحية في الثقافة الأوروبية

نذكّر اولاً بأثر العقائد الدينية في انبعاث جميع الحضارات، والذي أشرنا إليه آنفاً، نقلاً عن الأستاذ مالك بن نبي، عند الكلام عن فصل الدين عن الدولة، وقوله رحمه الله: ينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها.

فإذا أضفنا إلى ذلك قولنا إن كل حضارة في التاريخ عبّرت عن نفسها من خلال ثقافة معينة؛ أدركنا مدى صلة الثقافة بالدين على وجه العموم. علماً بأن مثل هذه الصلة يمكن تأكيدهاكذلك ـ في واقع الأمر ـ من خلال ملاحظة التوافق القائم بين خارطات الدين والثقافة والحضارة في العالم، فضلاً عن أسباب أخرى سوف نشير إلى بعضها في سياق الحديث عن أثر الدين المسيحي، على وجه الخصـوص، في الثقـافة الأوروبية ـ موضوع هذه الفقرة ـ والذي حالت الشعـارات «العلمانية» بين علمائنا ومثقفينا وبين ملاحظته ورصده لوقت طويل!

يقـول الفيلسوف الناقد الشاعر «ت. س. إليوت»: «إن القوة

الـرئيسية في خلق ثقـافـة مشتـركـة بين شعوب لكلٍ منها ثقافتها المتميزة هي الدين. وأرجو ألا تخطئوا عند هذه النقطة بتصور معنىً لم أقصده، فهذا ليس حديثاً دينياً، ولست أرمي إلى تحويل أحدٍ عن دينـه، وإنمـا أنـا أقرر حقيقة. ولست شديد الاهتمام بوحدة المسيحيين اليوم، وإنمـا أتحـدث عن سنن المسيحية المشتـرك الذي جعل أوروبة على ما هي عليه»

ثم يقول: «في المسيحية نمت فنوننا. وفي المسيحية تأصلت ـ إلى عهد قريب ـ قوانين أوروبة. وليس لتفكيرنا كلّه معنى أو دلالة خارج الاطـار المسيحي. وقـد لا يؤمن فرد أوروبي بأن العقيدة المسيحية صحيحـة، ولكنّ كل ما يقوله ويفعله يأتيه من تراثه في الثقـافـة المسيحية، ويعتمـد في معناه على تلك الثقافة. ما كان يمكن أن تخرج فولتير أو نيتشه إلا ثقافة مسيحية. وما أظن أن ثقافة أوروبـة يمكن أن تبقى حيّة إذا اختفى الايمـان المسيحي اختفاء تاماً، ولا يرجع اقتناعي بذلك إلى كوني مسيحياً فحسب، بل إني مقتنع به أيضاً بوصفي دارساً لعلم الأحياء الاجتماعي!».

ويضيف: «إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا. وعندئذٍ يكـون عليك أن تبـدأ البداية المؤلمة من جديد. ولن تستطيع أن تنشىء ـ أو تلبس ـ ثقـافةً جديدة جاهزة!! يجب أن تنتظر والألم يعصف بك، حتى ينمو العُشب ليغذو الضأن ليُعطي الصوف الذي سيصنـع منـه رداؤك الجـديد! يجب أن تمر بقـرون كثيرة من الهمجية، ولن نعيش إذن لنرى الثقافة الجديدة، لا نحن ولا أحفاد

أحفادنا . . . ولوعشنا لما سعد بها واحدٌ منّا»[1] .

ويطول التعليق على هذه الآراء الهامة التي قالها «إليوت» وقد يحتاج الكثير منها إلى الشرح والبيان . . . وأكتفي بالقول : إن أبرز ما ذهب إليه بنـاءً على قوله : إن الثقافة الأوروبية ثقافة مسيحية : أمران : الأول : قوله بوحدة هذه الثقافة ، الذي عقد له فصلاً خاصاً في كتـابـه الهـام ، وذلك على الرغم من تعدد القوميات واللغات الأوروبية . والثـاني : قولـه الأخير هذا ، والـذي تنبـأ فيه بتلاشي «الحضـارة الأوروبية» ـ المؤسسـة على هذه الثقـافة ـ حين تفقد أصلها الديني . . والذي صوّره على هذا النحو المفزع الذي يعود بالانسان إلى العهد الرعوي ! ! بعد أن يسقط من تاريخه كل أطوار الحضارة التي عرفها عبر ارتقائه الطويل . . . والباهظ الثمن !

والقدر الذي لا نشك نحن فيه هو أن الثقافة الأوروبية ما تزال تحمـل روح المسيحية وطـابعها ، وتمتد إليها جذورها ورواسبها . وهذا واضح في الفكر الأوروبي الديني ، أو الذي لا يزال ينطلق من المسيحية أو يدور في فلكها ، وهو كثير لا يستهان به . . . وربما دلّت عليه الجهود العلمية المتصلة لرجال الدين المسيحي ، الذين أضحى الكثير منهم معدوداً في الفلاسفة والمفكرين .

كما أن الفكر الوضعي ـ أو العلماني ـ ليس بعيداً جداً عن هذه الصورة ، لأنه لم يأت على هذا النحو إلا من خلال مفهومه الخاص

---

(١) كتاب : ملاحظات نحو تعريف الثقافة ، ترجمة د. شكري عياد .

السـابق عن «الدين» وإلا من خلال أوضاع الكنيسة وتاريخ تكوّن العقيدة المسيحية ومـا لحقهـا من أفكار ومفاهيم وثنية . . . هذا، فوق ما في هذا الفكـر الـوضعي من ردود فعـلٍ ، من وجه . وتأثر عميق بعيد المدى بالمناخ التوراتي والتلمودي . والذي ولد واضعو ذلك الفكر فيه ، ونشأوا في ظله . . من وجه آخر. ولهذا فإنه ليس من قبيل المصادفة ـ على سبيل المثال أو الاستطراد الذي لا بدّ منه ـ أن نجد أثر هذا المناخ في «النظريات العلمية» الرئيسة التي ما زال تبنيّها والدعوة إليها يتم تحت عنوان «الوضعية» و «العلمانية» أو أنهـا نظريات لا علاقـة لهـا بالـدين! فالتفسير الجنسي للسلوك الانسـاني الـذي نادى به «فـرويد» تمت بلورته من خلال التراث اليهـودي التـوراتي والتلمـودي[1] . والتفسير الاقتصـادي للتـاريخ الانساني ، الذي قال به «ماركس» لا يعدو أن يكون جمعاً وتلخيصاً للنـزعـة المـادية عنـد اليهـود، أو في الفكـر اليهودي عبر عصور التاريخ . . والتي لم يستطع اليهود أن يفهموا أيَّ عقيدةٍ أو غيبٍ، أو أي أمرٍ من شئون الدنيا إلا في ظلها وانطلاقاً منها ، بدءاً من وجود الله تعالى ، حيث فهموا هذا الوجود فهماً حسياً ، وشبّهوا الله تعالى بخـلقـه كمـا هو معـلوم ، وانـتـهـاءً ببـذل ما لا يُبـذل في سبيل المـادة والمـال! ومـروراً بعـد ذلك بمقياس النبوة ، وطبيعة المعجـزة ، ومؤهـلات الـزعـامـة والملك ، والجـزاء الحسّي في

---

(١)راجع كتـاب : التراث اليهودي الصهيوني وأثره في فكر فرويد . للأستاذ الدكتور صبري جرجس . دار المعرفة القاهرة .

الـدنيا . . . إلـخ ، هذا ، فضـلاً عن أثـر مقـولاتهم أو مأثـوراتهم الفكـرية ، كدعـواهم بأنهم شعب الله المختار، وأن الانسان ابن شعبـه أو قومـه ، في النـزعـة القـومية العنصـرية ، وفي المذاهب الجمـاعية أو الاشتراكية . . التي عرفها الفكر الأوروبي . . . إلخ ، ولعـل هذا يفسّر النسبة الطاغية لليهود في العلماء هؤلاء أصحاب النظريات العلمية ، ومدى تمتعهم ـ من ثم ـ بحق الهيمنة الفكرية في إطار الثقافة الغربية والحضارة الأوروبية .

وهكذا يصعب ـ بل يستحيل ـ علينا أن نسلِّم «بإنسانية» هذا الفكـر ومـوضـوعيته ، أو بانقطاع صلته بالدين . كما يصعب علينا كذلك أن نفهمه وندرك أبعاده خارج ملابسات النشأة الشخصية ، والبيئـة الأوروبية ، ومفاهيمها الخاصة عن الدين والعلم ، والدولة والكنيسة ، وما لحق بهذه المفاهيم من تطور، وما أصاب تلك البيئة أو جرى عليها عبر عصور التاريخ .

وأياً ما كان الأمر بشأن هذه النقاط ، وسواها ، فإن القدر الهام ، والـذي في وسعنا تأكيده ، في هذه العجالة ، والذي يَبعد عندنا أن يجري حوله الخلاف ، هو:

أ ـ أن أصحاب الفكر (الوضعي) ـ أو العلماني أو غير الديني ـ لم يكن في مقدورهم إغفال الميراث الثقافي الذي انحدر إليهم ونشأوا عليه! حتى ولو لم يتجاوزا فيه ـ وهذا أضعف الايمان ـ حدود اللغـة أو اللّسـان! فاللغة هي أداة الاتصال بين الفرد والجماعة ،

وبين الفرد والعالم الخارجي، أو بين الفرد والأشياء! بل إن الفرد لا يعي ذاته إلا بواسطة الكلمات! وهكذا يتم تلقي «الثقافة» كلها بواسطة اللغة، ولهذا فإن الأستاذ العلاّمة «فيليب فينكس» لم يُبعد حين وصف اللغة بأنها «مرآة الثقافة كلها» لأن كل ما يصنعه الانسان أو يتصل به يحمل اسماً، فقوانينه ومؤسساته وعقيدته لها تعبيراتها اللفظية، والأشياء التي تكون في الطبيعة تظهر أيضاً في اللغة، ولكن ـ كما يقول «فينكس» بحق ـ من وجهة نظر ثقافة معينة على الدوام. كما نسمّي في الثقافة الاسلامية ـ واللغة العربية ـ المال رزقاً، وطلبه سعياً، والضرب في الأرض توكلاً، والانسان خليفة، والبشر خلائف. وعالم الطبيعة «عالم الشهادة» وأحياءه «مخلوقات». . إلخ «إن لكل ثقافة مفاهيمها الخاصة بالحياة والعالم، وتنعكس هذه المفاهيم على طبيعة لغتها»[1].

ب ـ يضاف إلى ذلك أن أصحاب هذا الفكر (الوضعي) لم يغفلوا بطبيعة الحال المشكلات التي كانت تعاني منها مجتمعاتهم، في المرحلة التاريخية التي وجدوا فيها أو عاصروها ـ والتي ولدت بدورها من طبيعة النمط الثقافي السائد وما اعتوره أو جرى عليه ـ ولهذا فإن ممارساتهم المبنية على هذا الفكر جاءت مبررة، أو على الأقل مفهومة! وهذا هو السبب في مغايرة هذه الممارسات لفهوم وممارسات النقلة والمترجمين لهذا الفكر من

(١) راجع كتاب «فلسفة التربية» للدكتور فيليب فينكس، ترجمة الدكتور محمد لبيب النجيحي.

أبناء الثقافات الأخرى، وبخاصة أبناء الثقافة الاسلامية كما سنرى بعد قليل. إن فهم أبناء الثقافة الأوروبية للعلمانية ـ ولسائر ما جاء في سياقها من مذاهب وأفكار كالماركسية والوجودية. . ـ كان مغايراً لما جرى عليه العمل والفهم عند النقلة والترجمين!

ولهذا أيضاً بقيت العلاقة قائمة بين مبادىء وشعارات هذا الفكر الوضعي العلماني الأوروبي، وبين تلك الأوضاع التاريخية والميراث الثقافي اللغوي، لم تنبتّ ولم تقتلع جذورها. . فالعلماني أو الماركسي الأوروبي سرعان ما تعود شخصيته المسيحية التي بدا للناظر أنها اختفت وراء القشرة العلمانية أو الماركسية إلى الظهور مرة أخرى أمام خيار حاسم. . بل في عملية «حك جلدٍ» عابرة في بعض الأحيان!

إن بذور (الفكر العلماني) وتربته، وقوالبه. . ليست علمانية في نهاية المطاف!

وعلينا أخيراً أن ننعم النظر في «ممارسات» أوروبة «النصرانية». . أو في الممارسات النصرانية ـ وليس العلمانية ـ لأوروبة، وبخاصة في شقها الاشتراكي السابق. . ضد المسلمين، أو في مواجهة العالم الاسلامي اليوم، لندرك الفرق بين الشعارات والممارسات، ولنقرأ بواطن وبواعث «الشخصيات» ولنقف على جذور الثقافات والحضارات.

والخـلاصة: أننا قد نسلّم بعلمانية الدولة والنظام، ولكنْ لا يمكننا أن نسلّم بعلمانية الفكر والثقافة. وإذا سلّم بعضنا بعلمانية الفكر والثقافة، فليس في وسع أحد أن يسلّم بعلمانية الحياة والسلوك.

رابعاً: الدعوة إلى العلمانية في العالم الاسلامي

والسؤال الآن: هل يوجد أدنى مبرر للدعوة إلى العلمانية والتبشير بها في العالم الاسلامي؟ وإذا وجدت مثل هذه الدعوة - كما وقع ذلك بالفعل - فكيف تكون النتيجة في هذه الحال؟

المطلب الأول: رفض مبررات الدعوة إلى العلمانية

لا يوجد هنالك مبرر للدعوة إلى العلمانية في العالم الاسلامي، لأن جميع مبررات الدعوة إليها في المجتمع الأوروبي لا وجود لها في المجتمع الاسلامي والحضارة الاسلامية. وقد سبقت الإشارة إلى أن أبرز هذه المبررات: تحالف الكنيسة (رجال الدين) مع الأباطرة ورجال الاقطاع، من جهة. ومقاومتها تعليل العلماء لظواهر الطبيعة واكتشاف سننها، من جهة أخرى. وقلنا إن علينا أن نفهم شعارات ومضامين الدعوة إلى العلمانية في أوروبة من خلال محاولة الخروج عن الكهنوتية، أو سلطة رجال الدين هذه، ببعديها أو شطريها السابقين. ويمكننا هنا، تمهيداً لشرح الموقف الاسلامي، وزيادة في الإيضاح، أن نعبّر عن هذين البُعدين بـ: الحكم الديني. والصراع بين الكنيسة والعلم. وعلينا الآن أن نبين موقف الثقافة الاسلامية والفكر الاسلامي من هاتين المسألتين، لبيان أن شعار العلمانية في العالم الاسلامي لا معنى له، أو لا مبرّر له على الإطلاق!

(١) الحكم الديني:

أما الحكم الديني فنقف أمامه وقفة عابرة، لأن من المعلوم أن الإسلام ليس فيه طبقة «إكليروس» أو كهنوت ورجال دين حكموا ـ أو يحكمون ـ بالحق الآلهي المقدس. والحاكم في الاسلام ليس وكيلاً عن الله، ولكنه وكيل عن الأمة.. ويرتقي فيها إلى مقعد الإمامة بالاختيار والبيعة والشورى، و«العَقدُ الاجتماعي» بينه وبين الأمة قائم على طاعته لله في أبنائها، بأن يحكمهم بالعدل، ويأخذهم بأحكام الله، أو بعبارة جامعه: بأن يطيع الله تعالى فيهم، كما قال الخليفة العظيم أبو بكر رضي الله عنه في أول خطبة سياسية جامعة بعد وفاة النبي ﷺ: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم» إنه حق الخروج على الحاكم إذن إن لم يأخذهم بأحكام الله، ويسوسهم بالعدل. وليست طاعة مطلقة أو عمياء بحكم النيابة عن الله، أو بالحق الآلهي المقدس! فالشريعة أو الأحكام الثابتة المنزلة من عند الله في هذه الحال ليست افتئاتاً على الأمة، ولا ميزة للحاكم، ولكنها الضمانة الحقيقية والثابتة للحق والعدل. وليست هي من «الثيوقراطية» أو الحكم الديني ـ الأوروبي ـ أو حكم رجال الدين بسبيل!

ومن هنا تبدو الأهمية البالغة لفلسفة الاتباع التي تحدث عنها أبو بكر رضي الله عنه في الخطبة المذكورة حين قال: «إنما أنا متّبع ولست بمبتدع» لأن الاتباع في هذه اللحظات الحاسمة بعد انقطاع الوحي هو آكد الأمور وألزمها لتحقيق العدل الذي رسم معالمه

القرآن الكريم، ومضت آياته البيّنات في تقريره إلى يوم الدين. فضلاً عن أن فلسفة الاتباع بعامّة هي الطريق المؤكده لخلود القرآن وصلاحية أحكامه لكل زمان ومكان، لأن هذه الفلسفة تعني أول ما تعني استنهاض العقل للنظر والاجتهاد في نصوص القرآن بدل التعسف في «ابتداع» ما قد يصلح لتلك اللحظة، أو يناسبها.. وقد لا يصلح أو لا يناسب غيرها بعد دهور وعصور! لله ما أشد نفاذ هذه البصيرة الصدِّيقيّة في ذلك الموقف التاريخي الحاسم! هذا فضلاً عن المعاني السياسية ـ الدستورية ـ الهائلة التي انطوت عليها هذه الخطبة القصيرة الجامعة.

أ ـ وقد يمكن وصف الحكم الاسلامي، إن جاز لنا أن نأخذ بالثنائية العلمانية التي أشرنا إليها، وأن ننطلق منها ونبني عليها، بأنه ديني ومدني معاً.. ديني من حيث تأسيسه على الأحكام الثابتة في الاسلام (أحكام الكتاب والسنة) ومدني من حيث البيعة والشورى والأحكام الاجتهادية، ومن حيث المعارضة السياسية المشروعة ـ والتي لا وجود لها بالطبع في دولة رجال الدين «الثيوقراطية» ـ علماً بأن هذه المعارضة ربما كانت وحدها معلماً كافياً لبيان الفروق بين الحكم الاسلامي، والحكم الثيوقراطي. ونستطيع التأكيد هنا على أن هذه المعارضة ترتقي في الحكم الاسلامي إلى درجة الواجب السياسي الاجتماعي الأخلاقي ـ ومحاولة تكوين رأي عام أو التأثير عليه ـ عملاً بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتطبيقاً لمقولة الصدّيق رضي الله

عنـه : «إن أحسنت فأعينـوني ، وإن أسـأت فقـوّمـوني»! ولمقولة الفاروق رضي الله عنه : «من رأى منكم اعوجاجاً فليقوّمني»!

وليست هذه المعارضة حقاً فقط كما في بعض النظم البرلمانية المعـاصـرة، أو واجبـاً حزبياً، كمـا في بعض النظم الأخرى. . ولكنها واجب ديني وسياسي وأخلاقي للدفاع عن الأمة ورعاية مصـالحهـا. وفي جميع الأحـوال، فنحن لا نرى أن هذه الثنائية العلمـانية تصلح منطلقاً لوصف الحكم الإسلامي. . وقد تصلح مدخلاً للوقوف على مزاياه وخصائصه، كما سنوضح في الفقرة التالية.

ب ـ وقـد تحرّج بعض العلماء والباحثين[1] من وصف دولة الإسـلام بأنهـا دولـة دينية، ووصفـوها بأنها دولة إسلامية، نظراً لمخالفة هذه الدولة لمفهوم الدولة الدينية التي عرفتها أوروبة في قرونهـا الـوسـطى، والتي حكمهـا أو تحكّم فيهـا رجـال الـدين المسيحي. ونظراً لأن الإسلام أوسع وأكبر من كلمة «دين».

وفي هذا يقـول الاستاذ الفاضل الدكتور يوسف القرضاوي: «ونـريد أن نقول لهؤلاء الذين يتهمون دعاة الاسلام بأنهم يدعون لإقـامـة دولـة دينية: إنكم تقولون على دعاة الاسلام غير الحق،

---

(١) الأستاذ الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي والصحفي السيد فهمي هويدي.

وتقولونهم ما لم يقولوا، فهم يدعون أبداً إلى إقامة دولة إسلامية، ولم يدعوا يوماً - ولن يدعوا - إلى دولة دينية.

«وفرق كبير بين الدولة الاسلامية، أي الدولة التي تقوم على أساس الاسلام، والدولة الدينية التي عرفها الغرب النصراني في العصور الوسطى. وعلّة ذلك أن هناك خلطاً كبيراً بين ما هو إسلامي وما هو ديني فكثيرون يحسبون أن كل ما هو إسلامي يكون دينياً. والواقع أن الاسلام أوسع وأكبر من كلمة دين. حتى إن علماء الأصول المسلمين جعلوا الدين إحدى الضروريات الخمس أو الست التي جاءت الشريعة لحفظها. وهي الدين والنفس والعقل والنسب والمال، وزاد بعضهم: العرض.

«أضرب مثلاً موضحاً، نحن ندعو إلى تربية إسلامية متكاملة، وهذه التربية تشمل أنواعاً من التربية تبلغ بضعة عشر نوعاً، إحداها: التربية الدينية، إلى جوار التربية: العقلية والجسمية والخلقية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والأدبية والمهنية والفنية والجنسية... إلخ. فالتربية (الدينية) شعبة واحدة من شعب التربية (الإسلامية) الكثيرة»[1] أهـ.

قلت: ونحن لا نذهب إلى هذا الرأي، لأننا لا نرى مانعاً من وصف الدولة الاسلامية بأنها دولة دينية، ووصف الحكم الاسلامي بأنه حكم ديني. بل نرى ذلك أصوب وأعدل! وليس من الضروري أن

---

(١) انظر كتاب: بينات الحل الاسلامي للأستاذ القرضاوي، ص١٥٨ .

يلحق الحكم الديني الاسلامي في هذه الحال ما وصفت به الدولة الـدينية في أوروبـة. . فالحكم غير الحكم، والدين غير الدين، والممارسات غير الممارسات. . والتاريخ غير التاريخ! وليس من الضروري أن نعيد قراءة مصطلحاتنا، أو أن نعدّلها ـ سعة وضيقاً ـ حتى تكـون متفقة مع مصطلحات الآخرين، أو مفهومة في ضوء ممارساتهم! نقول: دولة الاسلام دولة دينية، ونقول: الحكم عندنا حكم ديني، ولا يلحق بذلك خطأ أو اشتباه في أنه من نوع الحكم الإلّهي الـذي عرفتـه أوروبـة في العصـور الوسطى ـ عصر سيادة الحضارة الاسلامية الذي عرف نفسه الحكم الاسلامي ـ وإذا كان خطاب دعاة العلمانية عندنا يستدعي أكثر من ذلك حتى يعقلوا عنا مصطلحاتنا ومصطلحات قومهم، وثقافتهم وتاريخهم! فلا مانع من القـول: إن دولتنـا دينية، ولكن مفهومها وممارساتها وأسس بنائها أقـرب ما تكـون إلى ما يسمّى عنـد الآخرين دولة مدنية! هذا إذا سلّمنا بأن لهذه المقابلة ـ أصلاً ـ بين الديني والمدني معنىً، سواء أكان مقبولاً أم غير مقبول، في غير نطاق التاريخ الأوروبي.

ونؤكد هنا مرة أخرى على أن هذه المقابلة لا تعدو أن تكون واحـدة من الثنـائيات التي أشـرنـا إليها في مطلع بحث العلمانية (الـدولـة والكنيسـة. المـدني والـديني. المـوسيقى الـدنيوية والمـوسيقى الـدينية. المـدرسـة الـدنيوية أو المدنية، والمدرسة الإكـليركية. الحياة الـدنيوية غير المقـدسـة، والحياة الكنسيّة المقدسة. .)، فإذا تذكرنا أن هذه الثنائيات لا عهد للإسلام بها،

لا على مستوى النظر، ولا في واقع التطبيق؛ أدركنا أن استعارة بعضها قد ينطوي على التسليم ببعض مقولات العلمانية الأوروبية!

أما أن يقال إن هنالك خلطاً كبيراً بين ما هو إسلامي وما هو ديني!! بحجة أن الاسلام أوسع واكبر من كلمة «دين» فنحن ممن يذهبون إلى هذا الخلط، أو يقولون بهذا الرأي، عملاً بما نفهمه من قوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾ ونسميه في هذه الحالة تطابقاً، ولا نسمّيه خلطاً.. مع الاشارة إلى أن كلمة «دين» قد تأتي في مصطلح بعض علمائنا القدامى بمعنى العقيدة أو أركان الايمان، وإلا فنحن مضطرون إلى الارتقاء بسند العلمانية إلى هؤلاء العلماء لأنهم فصلوا بين «الدين» وبين سائر الضروريات الخمس الأخرى!

كما قد تستعمل «التربية الدينية» بمعنى التربية الروحية، ولا يقصد من هذا الاستعمال: التفريق بين التربية الدينية والتربية الاسلامية، أو أن التربية الاسلامية ـ بمختلف شعبها ـ لا تسمى تربية دينية.. أو العكس.

ونشير بهذه المناسبة إلى أن الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله الذي فصّل القول في نحو هذه الأنواع من التربية، في سياق حديثه عن علاقة علم الأخلاق بالتربية.. أراد أن يوضح أن علم الأخلاق ـ النظري ـ يبسط سلطانه على جميع أنواع التربية بدون

استثناء. . ولا يقتصر أثره كما قد يظن على «التربية الخلقية» وحدها. . والمسألة هنا، كما نرجح، مسألة فنيّة بعيدة عما استشهد به أو ذهب إليه الأستاذ الفاضل الدكتور القرضاوي. وربما كان هذا التقسيم على الرغم من ضرورته التعليمية قد سرت إليه أو تسربت إليه الروح العلمانية التي صنعت في التاريخ الأوروبي مثل هذه التقسيمات. والأرجح أن تكون التربية الدينية في حديث الدكتور دراز رحمه الله يراد بها التربية الروحية أو الإيمانية على كل حال.

ولا يقال أخيراً إن (الدولة الدينية) قد تكون مرفوضة أو موضع نظر من قبل غير المسلمين في المجتمعات الاسلامية، لأن هذا الموقف ينطبق بدوره على (الدولة الاسلامية)! علماً بأن المسألة ليست مسألة تسميات ومصطلحات، ولكن مسألة حقوق وممارسات. إن حق المساواة وسائر حقوق (المواطنة) التي يتمتع بها جميع أبناء المجتمع في دولة الإسلام، بغض النظر عن أديانهم السماوية ومذاهبهم، لم تكن في يوم من الأيام موقوفة على النقلة التي لم يكن لها وجود في هذه الدولة من الحكم الديني إلى الحكم المدني. . ولا على وصف هذه الدولة بأنها دولة مدنية لا دولة دينية، ولا على وصفها بأنها دولة إسلامية لا دولة دينية؛ لأن مثل هذا التفريق في النطاق الأوروبي، أو هذه الثنائية بين الدولة والكنيسة (أو بين سلطة رجال الدين وسلطة الدولة) هي التي بلورت فكرة (المواطنة) وكرّست من ثم مبدأ المساواة بين

المواطنين على اختلاف مذاهبهم الدينية. . بعد الصراع الدموي بين هذه المذاهب المسيحية، والذي حمل الكنيسة في وقت سابق على ممارسة التميز ضد اتباع المذاهب الأخرى، حتى وصفوا بالكفر والهرطقة! فضلاً عن موقفها الذي كان أكثر رفضاً وشراسة ضد أتباع الأديان الأخرى، كما جرى مع المسلمين في ظل محاكم التفتيش، وفي حركة اضطهاد اليهود! وغني عن البيان أن تكريس فكرة **المواطنة** يعد أبرز الإنجازات العلمانية، أو أحد إنجازات الفصل السابق بين الديني والمدني، وبين الدولة والكنيسة.وفي جميع الأحوال فإن الأمر الحاسم في هذه المسألة أن الاسلام ليس عقيدة، أو ليس عقيدة ايمانية أو روحية فحسب، بل هو كذلك شريعة ونظام حياة. وإذا انفصل غير المسلمين في المجتمعات الاسلامية عن الاسلام في جانبه العقدي أو الايماني، فإنهم متصلون به في جانب الشريعة والنظام، أو في الجوانب الأخرى على وجه الاجمال. فإذا كانت هذه الجوانب هي التي سميت «مدنية» أو هي المرادة بالجانب (المدني) في الاسلام، فإن الموقف لا يسمح لنا فيما نقدر بالفصل بينها وبين العقيدة. . بحيث نقصر وصف (الدين) على العقيدة وحدها، ونجعل (الاسلام) وصفاً شاملاً للعقيدة ونظام الحياة! والله أعلم.

قلت: هذه خلاصة سريعة عن مدى مغايرة مفهوم الحكم في الاسلام لمفهوم الحكم الديني (الثيوقراطي) الأوروبي. وقد اتضح لنا من خلالها أن أحد مبرري الدعوة إلى العلمانية في المجتمعات الأوروبية لا وجود لها أو لا نظير لها في الإسلام.

ويبقى المبرر الثاني المتمثل في الصراع بين الكنيسة والعلم. والذي نعرض له من خلال بيان موقف القرآن الكريم ـ بوصف المصدر الأول للثقافة الإسلامية ـ من العلم ومن اكتشاف سنن الكون والطبيعة. وتحت عنوان: موقف القرآن الكريم من العلم والتقدم العلمي.

(٢) موقف القرآن من العلم والتقدم العلمي:

لم تعرف الثقافة الاسلامية أو المجتمع الاسلامي وجود «رجال دين» وقفوا في وجه (العلماء) ـ التجريبيين ـ أو قاوموا اتجاههم نحو تعليل ظواهر الطبيعة واكتشاف سننها. كما لم يعرف التاريخ الاسلامي مثل هؤلاء الرجال ـ رجال الدين ـ الذين اضطهدوا (العلماء) أو حاكموهم حتى انتهوا بهم إلى التوبة أو المحرقة!

ولا يعود السبب في ذلك إلى عدم وجود مثل هذه الطبقة في الاسلام، فحسب. . بل يعود قبل ذلك إلى أن النصوص القرآنية ـ أو النصوص الدينية كما يقال بلغة القوم ـ كانت صريحة في الحث على العلم والتقدم العلمي، وواضحة الدلالة في الأمر بالتفكر والملاحظة والنظر والاعتبار.

وقبل أن نلخص موقف القرآن الكريم ـ بوصفه المصدر الأول للثقافة الاسلامية ـ من هذه المسالة، نشير أولاً إلى أن القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع، ودستورٌ جامع للحياة الانسانية. . أي

أن موضوعه الأول أو الأساس هو «الإنسان» وليس «الطبيعة» أي «الثقافة» وليس «العلم» أو العلم التجريبي. انطلاقاً من الفكرة القائلة إن الثقافة موضوعها الانسان أو هي تتعامل معه. وإن العلم التجريبي موضوعه الكون أو الطبيعة أو «المادة».

ومع ذلك فإن القرآن الكريم لم يكتف بأن كشف للانسان عن نفسه، ووقفه على سبل صلاحها وإصلاحها.. وسبل غوايتها وضلالها، .. وقصّ عليه في سبيل الصلاح والفلاح: تاريخ النبوات.. وتاريخ «الإنسان» .. وقدّم له في ذلك عقيدة مثلى وشريعة صالحة لكل زمان ومكان. أقول: لم يكتف القرآن الكريم بذلك، بل أعطاه كذلك «مفاتيح» اكتشاف الكون أو الطبيعة الخارجية من حول؛ ممثلةً في خطوات المنهج التي نوردها بعد قليل.

وهكذا تصبح الفكرة أو المعادلة على النحو التالي: القرآن موضوعه (الإنسان) وليس (الطبيعة). والقرآن «كشف» للإنسان عن نفسه، وأعطاه مفاتيح «اكتشاف» الطبيعة من حوله.

وحتى لا يظن أو يفهم من هذا أننا لا نقف أمام «الحقائق العلمية» التي أشار إليها القرآن الكريم الوقوف المناسب، بوصفها دليلاً على مصدر القرآن الكريم وأنه تنزيلٌ من حكيم حميد.. نشير هنا ـ ثانياً ـ إلى أن هذه الحقائق التي جاء بها القرآن عن الكون والطبيعة (وعن الانسان أيضاً في جانبه الخلْقي أو العضوي) ـ والتي تسمى في عرف العلماء بالنظريات ـ ليست هي الأصل في

وصف القرآن بالعلمية أو أنه كتاب علمي! بمعنى أن وجودها هو الذي يخلع على القرآن هذا الوصف أو هذه السّمة ـ وإن خلوها منه، على سبيل الفرض، ينفي عنه هذا الوصف! ـ ولكن الأصل في ذلك: «المنهج العلمي» الذي جاء به القرآن، والمناخ العقلي الذي أوجده، والشروط النفسية والاجتماعية التي أشاعها.. فالقرآن الكريم كتاب علمي بهذا المنهج، لا بما أشار إليه من حقائق ـ أو نظريات ـ تضاف إلى «تاريخ العلم». ونعني بتاريخ العلم: تطور حقائقه ـ ونظرياته ـ عبر عصور التاريخ منسوبة إلى أصحابها من العلماء المكتشفين وأصحاب الاختراع. فالقرآن الكريم لا يوصف بالعلمية لأنه أسهم في هذا التاريخ بعدد من الحقائق أو النظريات! ولكنه يوصف بأنه كتاب علمي لأنه تضمن «منهجاً علمياً» يتيح للانسان أن يعمل ويكتشف ويتقدم، فلا يصدّه عن ذلك صادّ، ولا يعترضه معترض! لقد أشرنا قبل قليل إلى المعارضة التي نشأت في وجه العلماء في تاريخ المجتمع الأوروبي، وكيف أنها كانت معارضة جدلية أو دينية قامت على فكرة التحريم والتحليل، أو التحريم والتجريم!... أي أنها كانت تحول بين الإنسان وبين القيام بالخطوات اللازمة للتقدم والكشف والاختراع، أو انها حالت بينه وبين الاعلان عن هذا الكشف أو الاختراع! حتى جاءت العلمانية فحررت العقل الأوروبي والمجتمع الأوروبي من هذه المعارضة!!

ولو أن القرآن الكريم، بوصفه كما قلنا كتاب هداية وتشريع، ودستوراً جامعاً للحياة الانسانية السويّة، اقتصر على خلوه من أي

موقف أو معارف تحول بين الإنسان وبين الملاحظة والتجربة، وإعمال النظر والفكر. لكان موقفه من العلم والتقدم العلمي إيجابياً بكل معنى الكلمة، لأنه لا ينبغي لأحد أن يطلب من القرآن أكثر من ذلك، لأن التقدم العلمي في جميع الأحوال من عمل الإنسان.. في مختلف العصور.

ومع ذلك، فقد اشارت الآيات الكريمة إلى المنهج الذي يتيح للانسان ـ في تعامله مع الطبيعة ـ أن يعمل ويتقدم، ورسمت له خطوات هذا المنهج وملامحه على النحو التالي:

١ ـ أزاح القرآن الكريم عن كاهل العقل الانساني كل ما يعوقه عن الملاحظة والتفكر، سواء أكان ذلك:

أ ـ من موروثات البيئة (أي الماضي) قال الله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تُغني الآيات والنُّذر عن قوم لا يؤمنون﴾ [يونس: ١٠١] وقال تعالى: ﴿ما لهم بذلك من علم إنْ هم إلا يَخْرصُون. أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون. بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مهتدون. وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مقتدون﴾ [الزخرف: ٢٠ ـ ٢٣]

ب ـ أو من ضغط المجتمع (أي الحاضر من حول الانسان) قال تعالى: ﴿قُل إنّما أعظُكُم بواحدة أن تقوموا لله مَثنى وفُرادى ثم تتفكروا﴾ [سبأ: ٤٦].

٢ ـ أوضح القرآن الكريم بجلاء، وفي آياتٍ كثيرة، أن الكون خاضع لسنن كونية ثابتة. وأنه يتصف بالحركة، والانتظام، والكمية، والتقدير والتصنيف. فوق ما جاء فيه من وصف شامل للطبيعة لم يقتصر على السماء دون الأرض، ولا على الجماد دون النبات، ولا على الانسان دون الحيوان... إلخ.

وقد جاء التعبير عن هذه السنن الكونية، وعن ثباتها وديمومتها، على النحو التالي، المثير للتأمل، والآخذ بيد العقل الانساني نحو تفهم خطواتها ومراحل تكوينها وعملها! قال تعالى: ﴿ألم تر أنّ الله يُزجي سحاباً ثم يؤلّف بينه ثم يجعله رُكاماً فترى الوَدْقَ يخرجُ من خلاله﴾[النور: ٤٣] وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزلَ من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يُخرج به زرعاً مختلفاً ألوانُه ثم يَهيج فتراه مصفَرّاً. ثم يجعله حُطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ [الزمر: ٢١] وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزلَ من السماء ماءً فتصبحُ الأرضُ مخضرّةً إن الله لطيف خبير﴾ [الحج: ٦٣] وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله سخّر لكم ما في الأرض والفُلك تجري في البحر بأمره ويمسكُ السماءَ أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ [الحج: ٦٥] وقال تعالى: ﴿ألم تر إلى ربّك كيف مَدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا. ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيرا﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٤٦] وقال تعالى: ﴿أوَلم ير الانسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ [يس: ٧٧] وقال تعالى: ﴿أوَلَم يَرَ الذين كفروا أنّ

السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون!﴾ [الأنبياء: ٣٠]

والآيات في هذا البـاب كثيرة كما هو معلوم، وقد نشير إلى بعضها في سياق بعض النقاط التالية، مكتفين هنا بالاشارة إلى آية أو آيتين للدلالـة على الأوصاف السابقة التي وصف بها الكون في آيات الكتـاب العـزيز؛ مع الإشارة إلى أن الآية الـواحـدة في أغلب الأحيان، أو في أحيان كثيرة، فيها دلالة على أكثر من صفة من هذه الصفات؛ **ففي الحركة**؛ يقول تعالى: ﴿أفلا يرون أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ [الأنبياء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون﴾ [الذاريات: ٤٧] وقال تعالى: ﴿وسخّر لكم الشمس والقمـر دائبين﴾ [إبـراهيم: ٣٣] **وفي الانتظام**؛ قال تعـالى: ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منـه النهـار فإذا هم مظلمون. والشمسُ تجـري لمستقـرٍ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم. والقمرَ قدّرناه منازلَ حتى عادَ كالعُرجون القديم. لا الشمسُ ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليلُ سابقُ النهار وكلٌ في فلك يسبحون﴾ [يس: ٣٧ـ٤٠] وقال تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكنّاه في الأرض وإنّـا على ذهابٍ به لقادرون. فأنشأنا لكم به جنّاتٍ من نخيل وأعنـاب لكم فيهـا فواكه كثيرة ومنها تأكلون﴾ [المؤمنون: ١٨ـ١٩] **وفي الكمية**، قال تعالى: ﴿والأرضَ مددناها وألقينا فيها رواسيَ وأنبتنا فيها من كل شيءٍ موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين. وإنْ من شيءٍ إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا

بقدر معلوم﴾ [الحجر: ١٩-٢١] وقال تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيضُ الأرحام وما تزداد وكلُّ شيء عنده بمقدار﴾ [الرعد: ٨] وقال تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكلَّ شيءٍ فصّلناه تفصيلا﴾ [الاسراء: ١٢] وأخيراً جاء في التصنيف قوله تعالى: ﴿والله خلق كلَّ دابّة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على اربع﴾ [النور: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يُحشرون﴾ [الأنعام: ٣٨]

٣ - صوّر القرآن الكريم علاقة الانسان بالطبيعة على أنها علاقة مخلوق بمخلوق وعلى أنها علاقة مخلوق سامٍ بمخلوق مسخّر! فالشمس والقمر والنجوم، والفلك والأنهار والبحار. وكل ما في السموات وما في الأرض مسخّر للانسان، قال تعالى: ﴿الله الذي سخّر لكم البحر لتجريَ الفُلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الجاثية: ١٢ - ١٣]. وقال تعالى: ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفُلْك لتجري في البحر بأمره، وسخّر لكم الأنهار. وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٣].

إن هذه العلاقة، كما يصوّرها القرآن الكريم في وضوح أخّاذ، ليست قائمة على النديّة أو المغالبة! فضلاً عن أن تكون قائمة على الرهبة والخشية.. أو العبادة! والعجيب أن الانسان في سذاجته القديمة أو جاهليته الأولى اتخذ من مظاهر الطبيعة التي سُخرت له وقُصد بها نفعه.. معبوداً من دون الله! حتى إذا وصل إلى مرحلةٍ ما من مراحل اكتشاف سننها وقوانينها.. كاد أن يتجه إلى هذه السنن والقوانين ذاتها بالعبادة! حين توهم أن هذا الاكتشاف يغنيه عن تقدير خالق هذه السنن، وواضع هذه القوانين. إن قانون تشكل السحب، أو نزول المطر، أو خروج النبات، أو سير السفن، لا يمكن أن يكون هو الخالق، لأن هذا القانون ليس إلا حادثة مصنوعة، وارتباطاً بين أمرين أو أمور متعددة ـ ارتباط نمو النبات بنزول المطر، ونزول المطر بتكاثف السحب، وتكاثف السحب بتبخر الماء.. إلخ ـ ويحتاج إلى «مقنّن» وخالق لهذا الارتباط المنظم بين أجزاء الكون. وهو الأمر الذي كانت تشير إليه آيات التسخير هذه باستمرار... ضبطاً لنتائج الاكتشاف.. وليس تهويناً من شأنه! أو إبطالاً لقانون الأسباب! أو بعبارة أخرى: حفاظاً على وضع الانسان ومكانته في الكون: **عبداً لله، وسيداً للطبيعة**

نعود إلى هذا الانتفاع غير المأجور، أي التسخير الذي يمكن عدّه الاطار لجميع السنن والأوصاف السابقة التي جاءت للكون في القرآن الكريم، لنقول: إنه لا يمكن بغير الوقوف على هذه السنن التي تحكم الظواهر حتى يتمكن الإنسان من تحقيق هذا

الانتفاع، أو الارتقاء به إلى أقصى الدرجات؛ خصوصاً إذا علم من خلال النقطة السابقة أنه لا يتعامل مع كونٍ مشتت أو مضطرب، أو يخضع للتبدل والتحول بدون نظام يحكمه أو قانون يخضع له، فما عليه إلا أن يلاحظ ويفكر. . .

ولنا أن نتساءل هنا: ما الذي فعله الفيلسوف الكبير «ديكارت» في رسالته المشهورة «مقال في المنهج» غير أنه أنزل الفلسفة إلى الأرض، ونادى - أو بشّر - بعبارات قوية ومعبّرة بعصر يسيطر فيه الانسان على الطبيعة![1] أليست هذه السيطرة التي بدأت بولادة الحصان البخاري - اكتشاف قوة البخار - في قِدْر «بابان» و «واط» بعد نحو قرنين من مقالة ديكارت تذكّرنا بمنهج «التسخير» الأدق والأشمل الذي وجد مع نزول القرآن الكريم، حتى تم للمسلمين اكتشاف النظام العشري، والجبر، والمثلثات، وقياس محيط الكرة الأرضية في عصر المأمون، أي بعد حوالي قرنين من نزول القرآن، هذا مع فوارق أخرى كثيرة بين المنهجين - فيما وراء التسخير، والسيطرة أو القهر - من أهمها أنها جاءت كما رأينا في القرآن، أي في كتاب ديني - بالمفهوم الغربي لكلمة «دين» - ولذلك لم تقتصر فيه على علاقة الانتفاع والتسخير، بل تعدّتها إلى صلة التأمل والتفكير، والانتقال منها إلى الخالق المبدع عز وجلّ، واضع تلك السنن، ومقدّر هذه القوانين؛ قال تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم

---

(١) انظر كتاب: العلم في التاريخ، تأليف جون ديزموند برنال، المجلد الثاني ص ٨٩ - ٩٠ ترجمة د. علي علي ناصف.

الأرض ذلـولاً فامشُـوا في منـاكبها وكُلُوا من رزقه وإليه النشور﴾ [الملك: ١٤] وقال تعالى: ﴿ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السمـوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نِعَمة ظاهرة وباطنة ومن النـاس مَن يُجـادل في الله بغير علمٍ ولا هُدىً ولا كتـاب منير﴾ [لقمان: ٢٠] وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخّر الشمس والقمر كلٌ يجري إلى أجل مسمًّى وأنّ الله بما تعملون خبير. ذلك بأن الله هو الحق وأنّ ما يدعون من دونه الباطل وأَن الله هو العليُّ الكبير﴾ [لقمان: ٢٩ - ٣٠].

٤- وغني عن البيان أن نشير بعد ذلك إلى ما ورد في القرآن الكريم من أمرٍ للإنسان بالنظر والتفكر والاعتبار والضرب في الأرض، والبحث في ميادين النفس والمجتمـع، والتاريخ، والطبيعة. وما ورد فيه كذلك من مادة «العقل» و «النظر» ونحو ذلك، في عشرات المواضع، وفي شتى السياقات والمجالات كما قلت. قال تعالى: ﴿قُـل سيروا في الأرض فانـظروا كيف بدأ الخلقَ ثم الله يُنشىء النشأة الآخرة﴾ [العنكبوت: ٢٠] وقال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السّماء فوقَهم كيفَ بنيناها وزيّناها﴾ [سورة ق: ٦] وقال تعالى: ﴿فلينـظر الانسان مِمَّ خُلق﴾ [الطارق: ٥] وقال تعالى: ﴿أَوَلَم يتفكرّوا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمّى﴾ [الروم: ٨] وقال تعالى: ﴿إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم وما يبثُّ من دابَّةٍ آيات لقوم

يوقنون. واختلافِ الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزقٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آياتٌ لقوم يعقلون﴾ [الجاثية: ٣ ـ ٥].

والآيات في هذا الباب لا تغطي مساحة واسعة في النص القرآني فحسب، بل إنها بحاجة إلى تصنيف دقيق، كلٌ في بابه الواسع، وشُعبته الخاصة، والسنة المقصودة في هذا السياق، ونحو ذلك.

٥ ـ ورد في القرآن الكريم إشارات كثيرة حول بعض القضايا الكونية والسنن الطبيعية، وحول خلق الانسان.. جاءت كإطار أو حوافز للعقل الانساني، تضاف كتطبيق على هذا المنهج وتلك المقدمات، وعلى نحو يتم إدراكه والوقوف عليه خلال العصور؛ لأن هذه الاشارات لم يُرد لها أن تكون بديلاً عن العقل الانساني أو التجربة الانسانية، في الوقت الذي لم يعجز فيه القرآن عن خطاب الانسان في أي عصر، ولم يحمّله كذلك اكثر مما يطيق. ولكن إذا كان المنهج يمثل الطريق الذي يهدي الانسان حتى لا يضل في تعامله مع الطبيعة كما ضلّت من قبل اممٌ وشعوب كثيرة، فإن هذه الاشارات ـ التطبيقية ـ تأتي في باب الشواهد على البعد الزماني للقرآن، وأنه لا يلحقه باطل في قادمات الأيام!... بل تأتي في باب التأكيد المستمر على مصدر هذا الكتاب الخالد، وأنه تنزيل من حكيم حميد.. كلما ارتقت بالانسان تجاربه وعلومه. أو كلما عاد إلى تلك الاشارات ففهم منها ما لم يكن قد

عرفه أو وقف عليه من قبل! قال تعالى : ﴿سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنّه الحق﴾ [فصّلت : ٥٣].

وفحوى ذلك أن «الامتثال» لهذا المنهج العلمي أو لخطوات هذا المنهج التي رسمها القرآن الكريم هي التي تؤدي إلى معرفة القوانين والوقوف على السنن. . الأمر الذي يتمكن معه العالم فيما بعد من إجراء المطابقة بين الاكتشاف وبين نصوص القرآن. أو يتمكن من إقامة الدليل الحسّي والبرهان الحسابي أو المادي على صحة (الفرضية) التي أوحت له بها بعض الآيات. . . فيترجح عنده آنذاك صحة فهمه للآيات التي أشارت إلى تلك الظاهرة. . .

٦ ـ وأخيراً، فإن التاريخ الاسلامي لم يشهد لهذا كله مثل ذلك الصراع الذي شهده تاريخ أوروبة بين رجال الدين ورجال العلم، وكان كما قدمنا أحد سببين جوهريين في الدعوة إلى العلمانية.

بل شهد التقدم في كلا الجانبين: الثقافي الديني، والعلمي التجريبي، في وقت واحد! إن المتتبع لمسيرة الحضارة الاسلامية يمكنه أن يلاحظ أن تقدم المسلمين في هذين البابين، كان يسير في خط بياني واحد أو مشترك؛ كان المسلمون يتقدمون في كلا الجانبين، ويتخلّفون أو يلحقهم الركود في كليهما كذلك. ولم يحدث في تاريخ هذه الحضارة أن ارتفع احدهما على حساب الآخر ـ كما هي الحال في بعض الحضارات الأخرى على سبيل

المثـال ـ فحين قاس المسلمـون محيط الكرة الأرضية في عصر المأمون، كانت الثقافة الدينية قد بلغت أوجها في دار الحكمة وفي أروقة بغداد، وفي حركة الاجتهاد العقلي ـ حيث شهد القرن الثاني ولادة فقـه ابي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، والامام زيد رحمهم الله ـ وحين غزتهم الحضارة الأوروبية في القرن الماضي كانـوا يشكّـون في كروية الأرض! ويشكّـون في الوقت ذاته في «إيمان» من يقول بهذه الكروية! وقد تعبر فيهم القرية أو الحيّ فلا تجد من يقرأ أو «يفك الخط» كما يقال! ـ وكأن القراءة والكتابة من الطلاسم أو المعضلات ـ فضلاً عن أن «يحفظ» حكماً من أحكام الفقه، ناهيك عن العقل والعلم والاجتهاد!!

وتـدل هذه المـواقف على مدى جمع القرآن الكريم لهذين الأصلين أو الجـانبين، من وجـه. كمـا تدل على مدى شروط «التقدم» ـ العلمي والثقافي ـ الحقيقية في العالم الاسلامي.. وأنها شروط قرآنية وثقافية في نهاية المطاف. وأنها ليست نقلاً أو تقليداً لما وقع في الحضارة الأوروبية.. أي أنها ليست شروطاً علمانية بحال من الأحوال[1].

---

(١) نضيف هنا ما قرأناه لعميد الاستشراق في نهاية القرن العشرين: «جاك بيرك» في مقابلة نشرت بتاريخ ١٥/٦/١٩٩٢ يقول: «.. وبخلاف ما كنا نتردد بالاقتناع به منذ بضع سنوات، أعتقد أننا وصلنا اليوم إلى قناعة ملخّصهـا أنه بإمكان المجتمعات أن تتقدم بدون أن تكون المادية، أو العلمـانية القصـوى (emsicial) شرطاً ضرورياً لهذا التقدم. بوسعنا تصور =

ولهـذا فإن الحضارة الاسلامية التي شهدت التقدم في كلا الجانبين السابقين، شهدت في الوقت نفسه اجتماع هذين البُعدين أو الأمرين في العالم الواحد. فكم من العلماء في تاريخ حضارتنا من كان متقـدماً في علوم الـدين وسـابقـاً او مكتشفاً في العلم التجـريبي . . فابن رشـد الحفيد شارح أرسطو، وصاحب كتاب «بـداية المجتهـد ونهاية المقتصد» في الفقه المقارن، له كتاب «الكليات» في الطب. وابن النفيس الدمشقي كان يتولى تدريس الـطب، وتدريس الفقه! وقد قام بشرح كتاب «التنبيه» في الفقه الشـافعي للشيرازي. وألّف في الطب والنحو والمنطق. وله في الـطب كتـاب «الشامل» وهو من الكتب التي وصلتنا، ويقع في (٣٠٠) جزء. . وهو موسوعة تضاهي كتاب «الحاوي» للرازي. . وكان ابن النفيس رائداً في علم التشريح المقارن، لأنه اكتشف وجـود تباين في تركيب أجسام الحيوانات ـ وهذا يدل على مدى اعتمـاده على التجـربـة والمـلاحـظة ـ فأوصى بدراسة التشريح المقارن للوقوف على هذه الاختلافات. وهو اخيراً مكتشف الدورة الدموية ـ الصغرى ـ قبل مايكل سرفيتوس الاسباني بثلاثمائة عام، وقبـل وليم هارفي الانجليزي الـذي ينسب إليه هذا الاكتشـاف بأربعمائة عام! ونشير بهذه المناسبة، وتأكيداً لدواعي العلمانية في المجتمع الأوروبي، أن سرفيتوس هذا أحرق في جنيف مع كتبه

= تقـدم في الإسـلام وبالإسلام ذاته» مجلة الأسبوع العربي، العدد رقم ١٧٠٥ ص ٤٧ .

حين نشر رسالة اعتبرت تحدياً للكنيسة، وتناولت فيما تناولت الدورة الدموية!

٧ ـ وحتى لو تجاوزنا، بعد، الحديثَ عن هذا المنهج ـ منهج التسخير ـ الذي تحدثت عنه الآيات القرآنية الكريمة؛ فإن الثقافة الاسلامية، في حقولها أو عناصرها المختلفة، كانت تستلزم التقدم التقني أو العلمي، أو رسم بداياته وصوره الأوليه على أقل تقدير! فالعبادة ـ التي قد يظن أنها أبعد هذه الحقول عن هذا الباب ـ كانت تستلزم مثل هذا التقدم أو التآخي بين الثقافة الدينية والعلم التجريبي! فشروط الصلاة، على سبيل المثال، من دخول الوقت، والوضوء، واستقبال القبلة.. أوضحت حاجة المجتمع الإسلامي إلى قياس الوقت، ووضع الروزنامات أو التقاويم، وتزويد أماكن الوضوء في المساجد (المياضىء) بالماء.. فضلاً عن تحديد الأماكن، وهندسة (المحاريب) لتحديد القبلة. ويرى بعض المستشرقين أن تقنيات المياه وشبكات المياه التحتيه لم تكن ضرورية للري فحسب، بل من أجل الصلاة والعبادة، ويقول: إن المسلمين أفادوا من تقنيات إغريقية ورومانية ومصرية قديمة في قضايا نقل الماء ورفعه وتوزيعه.. الأمر الذي أدى بدوره ـ أو فيما وراء العبادة وما يتصل بها ـ إلى تلك الثورة الزراعية التي حدثت في مشرق العالم الاسلامي في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وقد أشار كذلك إلى أثر الجهاد في تطوير آلة الحرب، وفي القيام ببعض العمليات الكيميائية، حتى تمكنوا من

الحصول على الزيت السريع الاشتعال «الذي تحول لديهم إلى سلاح فعّال في عصر الحروب الصليبية» ولا نعدد هنا مآثر المسلمين أو إضافاتهم العلمية، لأن هذا له سياق آخر. ولكننا لا نرى بأساً، نظراً لأثر اكتشاف الآلة في الثورة الصناعية، وفي دفع عجلة التقدم العلمي في الحضارة الأوروبية، من أن نشير إلى ما قاله الدكتور «هانس دايبر» أستاذ الدراسات الاسلامية بجامعة امستردام، حول سبق المسلمين لهذا الاكتشاف؛ يقول دايبر: «وبالوسع إثبات أن المسلمين استخدموا تقنية الغزل والنسج على آلة حياكة ميكانيكية منذ القرن العاشر الميلادي، بينما لم يعرف ذلك في أوروبة قبل القرن الثالث عشر»[1]

تعقيب أخير

وفحوى ذلك كلّه أن هذا المنهج القرآني حقّق «آليّته» أوآتى ثمراته في العالم الاسلامي. وإذا كانت هذه الثمار لم تبلغ غايتها، فإن السبب في ذلك يعود إلى الظروف الداخلية والخارجية التي عصفت بالمجتمعات الاسلامية أو تعرّضت لها، والتي لا يعود شيء منها بطبيعة الحال إلى موقف القرآن الكريم والثقافة الاسلامية من الاكتشاف والتقدم العلمي، أو إلى «طبيعة» هذا الموقف الإيجابي على هذا النحو الذي أشرنا إليه.

---

(١) من مقال بعنوان: «الاسلام وعلاقته بالعلم والتقنية: نظرة في الجدل المعاصر حول تاريخ العلم والحقيقة التاريخية» ترجمة الدكتور رضوان السيد. جريدة الخليج ص ٧، العدد ٣٩٥٧ تاريخ ١٩٩٠/٣/١٤ .

والعجيب بعد كل هذا ـ وهذا غيض من فيض كما هو معلوم ـ أن يُفهم اشتغال المسلمين بالعلوم الطبيعية عبر تاريخهم الطويل، على أنه خروج عن مفهوم العلم في الإسلام ـ لأن هذا المفهوم لا يتعدى عند بعضهم العلم الديني ! ـ وأن تؤول الكلمات التي صرّح فيها علماؤنا بأن اشتغالهم بالعلوم الطبيعية إنما كان امتثالاً وتطبيقاً لهذا المنهج القرآني. . على أنها محاولة منهم لإضفاء الصبغة الدينية على هذه العلوم. . حتى ينفوا عن أنفسهم شبهة الخروج على مفهوم العلم الديني عند المسلمين!!

وقبل أن أذكر تعليقاً عابراً على هذا الرأي، أورد أولاً بعض هذه الكلمات التي نقلها أصحاب هذا الرأي في هذا السياق. يقول ابن رشد، الذي سبقت الإشارة إليه: «من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً بالله»! وقال أبو الحسن الأنباري الذي كان يشتغل بعلم الهندسة، حين سئل: ماذا تدرس: «اشتغل بتفسير قوله تعالى: ﴿أولم يروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها﴾. . فأنا في علومي اشتغل بتفسير كيفية بناء هذه السماء». . . إلخ.

ثم نقول في التعليق: إن المرء لا يدري ما قيمة هذه التأويلات التي يحاول أصحابها حصر مفهوم (العلم) في الإسلام بالعلم «الديني» ـ بالمفهوم الغربي لكلمة دين ـ وكيف يمكنهم تفسير حجم الخروج على هذا المفهوم إذا كانت مؤلفات المسلمين في العلوم الفلكية والرياضية ـ كما ينقل بعض أصحاب هذا الرأي أنفسهم ـ بلغت الآلاف «حتى إن مكتبة القاهرة الفاطمية

ضمت في هذا المجال المتخصص ستة آلاف كتاب» كما نقل عن جوستاف لوبون.

بل إذا كان قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله مِن عباده العلماء﴾ إنما جاء في سياق الحديث عن الماء والنبات والجبال الدّوابّ والأنعام وعلم الانسان ـ أو عن الجغرافية الاقتصادية والطبيعية والبشرية ـ ولم يأت في سياق «العلم الديني» كما يصفون ، قال تعالى: ﴿ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيبُ سود. ومن الناس والدَّوابّ والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماءُ، إن الله عزيز غفور﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨] قلت: فإذا كان علماء الطبيعة هؤلاء من (العلماء) الذين يخشون الله تعالى بنص القرآن، أو بشهادة القرآن.. فما حاجتهم إلى الاعتذار عن اشتغالهم بها؟ أو محاولة إضفاء الصبغة الدينية عليها؟ إن هذا لشيء عجاب!

المطلب الثاني: آثار الدعوة إلى العلمانية

انتهينا من تقرير أن العلمانية في العالم الاسلامي لا مبرّر لها. ويبقى أمامنا الحديث عن آثار الدعوة إليها، بعد أن تمت هذه الدعوة بالفعل. أو بعد أن أخذت العلمانية طريقها إلى العالم الاسلامي في ركاب الاستعمار السياسي والعسكري أولاً.. ثم في ظل الحكم الوطني الذي كان «أميناً» على التراث الاستعماري في معظم الأحيان!

وعلى الرغم من أن أحوال العالم الاسلامي المعاصرة، أو التي سادت منذ عهد الاستعمار والاحتلال حتى وقت قريب. . أو حتى الآن ـ في تركية وسواها من البلاد العربية والاسلامية ـ تعكس هذه الآثار في مختلف حقول الحياة: الفكرية، والتربوية، والاجتماعية، والإعلامية، والسياسية، والقانونية. . وسواها؛ الأمر الذي يخرج استقصاؤه عن حدود هذه الدراسة، وعن مهمتها كذلك؛ فإن في وسع أي دارس أن يرصد هذه الآثار، وأن يعود إلى امتحانها والنظر فيها في ضوء المعالم الهامة، والخطوط الرئيسية التي نوردها فيما يلي، والتي حرصنا على أن تكون أقرب إلى التحليل والتعليل، منها إلى سرد هذه الآثار، أو رصدها وذكر صورها:

١ ـ تغرّب وتغريب

تعد الثقافة الاسلامية بفروعها أو مكوّناتها المختلفة، من عقيدة، وعبادة، وشريعة، وسياسة واقتصاد، وأخلاق، وتربية واجتماع. . ثقافة دينية، بمعنى أن أصولها ومنطلقاتها وثوابتها في كل هذه الحقول دينية جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ فإذا اقتصرنا في فهم الاسلام على أنه صلة روحية، أو أن دائرته ـ كدين ـ لا تتعدى البُعد الفردي للإنسان، أو حياة الإنسان الشخصية؛ والمتمثلة في علاقته مع ربّه سبحانه ـ كما هي الحال في ظل العلمانية المسيحية ـ فمعنى ذلك ومؤداه: **تفريغ الشخصية الإسلامية من محتواها الثقافي!**

وفي هذه الحـال يطرح علينا السؤال التالي : ما الثقافة التي سوف تقـوم بهـذه الشخصية وتملأ فراغها! لا شك في أن أقوى النمـاذج الثقـافية المـوجودة في عالم اليوم هي الثقافة الأوروبية بفـروعهـا المختلفـة السـابقـة، من اقتصـاد، وإعـلام، وتربية، وقانون. . إلخ . ولا شك في أن الحضارة التي تبسط سلطانها على العـالم هي الحضـارة الأوروبية. وإن كان تسليمنـا بعالمية هذه الحضارة، بمعنى سيادتها على مسرح التاريخ المعاصر، لا يعني تسليمنا بعالمية ثقافتها، أو بعبارة أدق «بإنسانية» هذه الثقافة، أو بأن هذه الثقافة خرجت، مع الفرصة التي أخذتها في التعميم وسعة الانتشار، عن كونها أوروبية النشأة والخصائص. ويعود السبب في ذلـك إلى أن الثقـافـة الأوروبية إنمـا تبلورت وأخـذت ملامحها وسمـاتهـا من خلال حركـة المجتمـع الأوروبي عبـر عصـوره التاريخية، وكانت في فحواها استجابة لحركة هذا التاريخ . كما أوضحنـا ذلك بالتفصيل في دراسة أخرى[1] . . من خلال مقارنة الثقافة الأوروبية بالثقافة الإسلامية في علاقة كلٍ منها بالتاريخ . حيث ذهبنا إلى القول إن التاريخ على الصعيد الأوروبي هو مجال استنباط الآراء والنظريات أو المذاهب في مختلف حقول الثقافة، أو هو مجال استنباط «النظرية» باختصار. في حين أن التاريخ عندنا

---

(١) بحث منشور في حولية كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة قطر، العدد الثامن ١٩٩٠ (الصفحات ٢٦٩ ـ ٢٩٥) ونقوم الآن بطبعه في كتاب مستقل بعد أن أضفنا إليه متابعات ونتائج أخرى في باب العلوم الانسانية والاجتماعية في الاسلام.

أو على الصعيد الإسلامي يعد مجال تطبيق «النظرية» وليس محل استنباطها! إن جاز استعمال «النظرية» وصفاً للإسلام أو لثوابته التي جاء بها الوحي في الكتاب والسنّة. وقد أجزنا لأنفسنا ذلك اختصاراً ومشاكلة في هذا السياق.

والنقطة أو النتيجة التي نود أن نشير إليها هنا من نتائج هذا البحث، أو من أفكاره الأساسية أن الثقافة الإسلامية ـ أو النظرية الإسلامية ـ لا تُصاغ اليوم ولا تستنبط من خلال حركة التاريخ الإسلامي، أو من خلال مراحله المختلفة، لأن هذه الحركة في أساسها جاءت استجابة للوحي أو للكتاب والسنّة، أو للإسلام بوصفه عقيدة وشريعة ومنهج حياة! وقد تقلّبت هذه الحركة مداً وجزراً، وصعوداً وهبوطاً، تبعاً لمدى تحقق المجتمعات الإسلامية بالشروط القرآنية، أي تبعاً لفهم هذه المجتمعات للنظرية الإسلامية، أو مدى قيامها بالإسلام بجميع عناصره ومكوّناته الثقافية! ومن ثم فإن المعطيات الفكرية والثقافية لهذا التاريخ الطويل لا تصلح الآن مصدراً للنظريات إذا أردنا أن نبلور ثقافة عصر نهضة جديد! اللهم إلا تلك المعطيات التي لا تناقض الأصول والثوابت والمنطلقات التي نزل بها الوحي أو تلك المعطيات التي مشت في ركاب الوحي فهماً وتنزيلاً كما يقال. . . فكيف لنا أن نفعل ذلك من خلال التاريخ الأوروبي، أي من خلال معطياته الثقافية بوصفه مصدر النظريات كما أوضحنا في هذه الدراسة.

ومعنى ذلك أننا سوف نجد أنفسنا في أحضان الثقافة

الأوروبية ، أو واقعين تحت تأثيرها الهائل على الأقل! بغض النظر عن كون هذا التأثير مارسته الحضارة الأوروبية ضدنا أيام الاحتلال ، وبقينا نمارسه من خلال هذه الثقافة ضد أنفسنا في زمن الاستقلال. وهذا هو مبدأ التفريق بين التغريب والتغرب أو الاستغراب!

لقد فُرض علينا التغريب مع العلمانية أو مع «المناخ العلماني» الذي ساد المجتمعات الاسلامية زمن الاستعمار والاحتلال، والذي فصل في «واقع» هذه المجتمعات بين «الدين» و «نظام الحياة»! ونحن اليوم ما زلنا في عصر الاستقلال السياسي نعيش هذا المناخ، ونصرّ كذلك على طلب النموذج الثقافي الغربي ، ونفرضه على أنفسنا، ونسعى إليه. بل ربما قاومنا، وتحت عناوين شتى وبمعاذير مختلفة، عوامل « الأسلمة» أو «الاستعراب»! وهي الحالة التي يمكن وصفها بالأمانة على التراث الاستعماري! والتي تمثل أشد صور الخيانة للأمة والدين والثقافة! ولا ندري وصفاً مناسباً آخر لمن «يجاهد» لبقاء القانون المدني الفرنسي ، أو نظام التعليم الانجليزي ، أو المنقول عن المدارس الانجليزية . . أو يدافع عن جميع المؤسسات العلمانية ـ في التربية والقضاء والتشريع والاقتصاد ـ التي خلّفها الاستعمار الأوروبي قبل رحيله عن دنيا العروبة والاسلام .

وحين نجد أنفسنا، من خلال هذه المؤسسات ـ وكما قدمنا ـ في أحضان الثقافة الأوروبية وقيمها؛ فإن علينا أن نقول بكل

وضوح: إنْ قبلنا بهذه الثقافة ودافعنا عنها بوصفها ـ كما يعتقد الكثيرون ـ «ثقافة وضعية ـ علمانية» فقد دخلنا في باب التغرّب أو التغريب (أقول: التغريب؛ لأننا وصلنا إلى مرحلة فرض استمرار هذا النموذج بالقوّة). وإن قبلنا بها بوصفها «ثقافة وضعية ـ مسيحية» أو «أوروبية ـ مسيحية» وجدنا انفسنا في باب التغريب وفي مناخ المسيحية أو النصرانية جميعاً! وهذا ما نرجحه ونذهب إليه في ضوء حديثنا السابق عن أثر المسيحية في الثقافة الأوروبية، وأخذاً كذلك من حديث النبي ﷺ: «لتتبعنَّ سَنَن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ تبعتموهم! ـ وفي رواية لدخلتم فيه ـ قالوا: يا رسول، اليهودَ والنصارى؟ قال: فَمَن؟»[1] أي: فمن غيرهم إذن، نعم إنهم هم.

الدعوة إلى العلمانية في الشعوب الاسلامية إذن موقف تغريب، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، وبكل ما ينبني على التغريب من مواقف ومعطيات فكرية وسلوكية واجتماعية، بل سياسية في بعض الأحيان. وإن شئت قلت: العلمانية موقفُ تغريبٍ وتنصير!

٢ ـ تجاوز وعدوان

إذا كانت العلمانية في المجتمع الأوروبي تمثل كما رأينا موقف حياد، أو موقف «تحييد» لرجال الكنيسة، وإقصاء، نظري

---

(١) أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أو إلى حدٍ ما، لهم عن شئون المجتمع والدولة، لأنهم كانوا في موقف تجاوز، فإنها في المجتمع الاسلامي لن تكون إلا موقف عدوان على الاسلام والمسلمين؛ فرد التجاوز والعدوان في مجتمع يقابله التجاوز والعدوان في مجتمع آخر!

والسبب في ذلك أن العلمانية تنازع الاسلام سلطانه الثقافي، وتسلب المسلمين حقهم في إقامة نظام حياتهم وفقاً للاسلام بوصفه عقيدةً وشريعة ومنهج حياة! وهذه المنازعة أو الخصومة واقعة من خلال تعارض العلمانية ـ على أي معنىً فُهمت ـ مع الأصول الدينية للثقافة الاسلامية، ومع «الفحوى الديني» إن صح التعبير للشخصية الاسلامية والمجتمع الاسلامي! وقد أثبتت كل النماذج العلمانية التي فُرضت على العالم الاسلامي هذه الحقيقة، فلم تكن «حيادية» حتى نحو الاعتقاد الفردي أو السلوك الشخصي عند المسلمين.. لأن هذه العقيدة لها مستلزماتها وتوابعها الثقافية ـ السلوكية، التي تتعارض مع العلمانية، أو التي جاءت العلمانية لمحاربتها وإقصائها. وإذا لم يكن في وسع أبناء المجتمع الاسلامي في فترة من فترات الضعف أو الجهل، أن ينهضوا بهذه التوابع والمستلزمات؛ فإن بقاء عقيدتهم كاملة وسليمة، سوف يدفع بهم في فتراتٍ أخرى إلى استكمال نمط حياتهم وسلوكهم في التربية والاجتماع والآداب، وفي السياسة والاقتصاد... وفقاً لأحكام الاسلام وشريعته التي أُسّست جميعها كما قلنا على هذه العقيدة، وانطلقت منها.

يضاف إلى ذلك أن «فحوى» العلمانية، أو خلاصتها الأخيرة عند دعاتها من أبناء المسلمين؛ لا تعدو أن تكون في واقع الأمر ـ بوصفها نقلاً وتقليداً ومحاكاة لما وقع في أوروبة ـ إيقاعاً للمماثلة أو تحقيقاً للتشابه بين المجتمعات الإسلامية والأوروبية، أي تحقيق «صورة» التغريب الذي أشرنا إليه! ولهذا فإن المجتمعات الأوروبية قد تقبل أو تقرّ من مسائل العقيدة الفردية والسلوك الشخصي ما لا يقرّه أو يقبل به العلمانيون المغرِّبون والمتغرِّبون في العالم الاسلامي! فلا ضير على المرأة أنْ تلبس في أوروبة ما تشاء، ولكن العلمانيين من المسلمين لا يقبلون منها بغير نزع الحجاب!

وقد يقول بعض العلمانيين، هنا: إننا لا نريد من الدعوة إلى العلمانية، أو الدعوة إلى تكريسها وعدم الخروج عليها فصل الاسلام عن المجتمع والحياة، ولكننا نريد فقط **فصل الدين عن السياسة!** ونقول في الرد والتصويب: إن هذا الادعاء غير متصور على صعيد الحياة والمجتمع الاسلامي، لأن السياسة فيه جزء من الحياة اليومية.. ولم تكن مهمة الحاكم في الإسلام في يوم من الأيام قاصرة على تدبير شئون الناس وتسيير مصالحهم بعيداً عن عقيدة الإسلام وأخلاقه وشرائعه.. أو بعيداً عن الأحكام المالية والجزائية التي أنيط تطبيقها أصلاً بالحاكم المسلم والدولة الإسلامية. وقد سبق لنا الحديث عن معنى الحكم في الاسلام، حين فرّقنا بينه وبين حكم رجال الدين في أوروبة. وقد عبّر العلاّمة

ابن خلدون عن هذه العلاقة الوثيقة التي لا تنفصم على صعيد الحياة والمجتمع الإسلامي بين الدين والسياسة، وبين الدين والدولة ـ أو بين العقيدة الدينية والنظام الاجتماعي ـ حين وصف «الخلافة الإسلامية» أو عرَّفها بأنها: حراسة الدين، وسياسة الدنيا به! قال ابن خلدون رحمه الله: «.. الخلافة هي حمل الكافّة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة. فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»[1].

وقد نلاحظ أخيراً أن القصد من هذا الادعاء، في بعض الأحيان: الفصل بين العقيدة والعبادة في حياة الفرد، من جهة. وبين الدولة والسياسة على صعيد المجتمع من جهة أخرى. ونعود مرة أخرى للتأكيد على أن هذا يتعارض مع «شمول» الاسلام في النظر والتطبيق، أو مع أحكام القرآن والسنة، وواقع السيرة والتاريخ. ويكفي للدلالة على هذا الشمول ببعديه النظري والتطبيقي معاً أن نشير فقط إلى واقعة الهجرة النبوية؛ فقد هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ليقيم (الدولة) أي أنها كانت هجرة سياسية إن صح التعبير؛ لأن المسلمين لم يكونوا في مكة ممنوعين من الاعتقاد الفردي أو العقيدة الشخصية، ومن إظهار العبادة حتى

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص١٩١.

في الكعبة بين مجتمع المشركين وفي ناديهم. بل بلغ الأمر بقريش أن فاوضت النبي ﷺ على ما هو أكثر من ذلك!

قلت: ومع إقامة دولة الإسلام في المدينة بدأت أحكام الشريعة التي تنتظم حياة المجتمع والدولة، وعلاقتهما بالمجتمعات والدول الأخرى في السلم والحرب، تنزل في دار الهجرة. ومعلوم أن (تاريخ) المسلمين ارتبط بهذه (الهجرة) حيث تم التأريخ بها بإجماع الصحابة وباقتراح فذٍ من الخليفة الفاروق رضي الله عنه! وغني عن البيان أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا طليعة هذا التاريخ، وقاعدته الصُّلبة أو المتينة!

الهجرة إذن عَنت الدولة، والدولة عنَت التاريخ! فهل معنى ذلك أن المسلمين إذا فقدوا (دولتهم) خرجوا من نطاق (التاريخ)، أي فقدوا تأثيرهم وانطفأت فاعليتهم، وغابت سياستهم أو ما يمكن تسميته بالسياسة الاسلامية في صنع الاحداث، وتوجيه التاريخ؟ يكفي أن نقول: إن ما انتهى إليه المسلمون اليوم من الغثائية والشتات كان أثراً مباشراً للعلمانية أو للنظام العلماني الذي ذهب بدولتهم، وألغى (خلافتهم) على يد رجل أوروبة في العالم الاسلامي: أتاتورك! وهكذا دخلنا التاريخ أمة ودولة، وخرجنا منه قبائل ودويلات.

وعلينا أن نلاحظ أخيراً، للدلالة على كل ما نقول، أننا نطلق مصطلح: العصر الجاهلي، أو تاريخ الجاهلية، على الفترة

السـابقة على الهجرة، والتي تشمل ضمناً فترة الدعوة الإسلامية المكية الممتـدة منذ البعثة النبوية حتى الهجرة، على الرغم من انفصـال فتـرة الـدعـوة هذه عن (التـاريخ الجاهلي) في الحسّ والشعور. ومعلوم أن هذه الفترة تمثل (البُعد الفردي) السابق في «تاريخ الدعوة الإسلامية» ويُعدّ هذا البُعد الفردي الذي تم اعداده في مكة أساس الانطلاق إذا ما قيس (ببُعد الدولة والنظام) الذي شهـده العهـد المـدني . . ومـع ذلـك فلم يتم التأريخ بالجهر بالدعوة على سبيل المثال، حيث قوي هذا البُعد واشتد وأعلن عن نفسه ! كمـا لم يتم التـأريخ ـ كذلـك ـ بالبعثـة النبـوية ونزول القرآن الكريم . . فضلاً عن ولادة النبي ﷺ! لأن (الدولة) في مكة قبل الهجـرة إنمـا كانت للمشـركين وليس للمسلمين، أو لأن النظام الاجتماعي والسياسي كان بيد قريش أو تقوده قريش.

ولهـذا كله، فإن العلمـانية في المجتمـع الاسـلامي تمثل بالنسبة لشمول الاسلام، أو لأبعاده التي جاء لتحقيقها في الفرد والمجتمع والدولة . . تجاوزاً وعدواناً، وإن شئت قلت أو أضفت: ردّةً تناقض هذه الأبعاد . . وتتعارض مع مقومات الحياة الاجتماعية والسياسية في الاسلام.

٣ ـ تخلّف وطائفية

والعجيب بعـد كل هذا، أن تربط الدعوة إلى العلمانية في البلاد العربية والاسلامية بدعوى «التقدمية»! وأن يصف أصحابها

أنفسهم بأنهم أصحاب الاتجاه التقدّمي العلماني! علماً بأن كل ما قدمناه حتى الآن يشير إلى أنها سبيل هذا المجتمع إلى تكريس التخلف أو الاستضعاف. ونذكّر هنا بأثر العلمانية ـ الخطير ـ الذي أشرنا إليه وحلّلناه قبل صفحات، والمتمثل في ملء فراغ الشخصية الاسلامية بالثقافة الأوروبية، أو بمعطيات التاريخ الأوروبي بوصف هذه الثقافة من صنع تاريخ القوم كما قدمنا. وهذا يعني الوقوع أو التبشير بنظام الحياة الأوروبي، أو يعني بعبارة أدق: استبدال هذا النظام بنظام الحياة في الاسلام. ونتيجة ذلك كله: تأكيد التبعية للغرب، الحالة الراهنة، ولهيمنته الثقافية والحضارية! أي تكريس التخلف أو الاستضعاف كما قلنا.

ومن هنا جاء دعم أوروبة للدعوة إلى العلمانية في العالم الإسلامي، وجاءت إشادتهم الدائمة بها! وما تزال تجربة «أتاتورك» في تركية، تُعرض علينا من قبل المستشرقين والباحثين ورجال السياسة الأوروبيين، على أنها النموذج الذي يحتذى للحداثة والمعاصرة وتطوير الإسلام! وما تزال أعماله التي «ارتكبها» في حق الإسلام والمسلمين تُعرض علينا على أنها إنجازات وإصلاحات تاريخية تمكّن «الغازي» من تحقيقها!! مثل: الغاء نظام الخلافة، وهجر الشريعة الإسلامية إلى القوانين الغربية ـ التي نُقلت وترجمت عن قوانين أكثر من بلدٍ أوروبي ـ واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، إمعاناً في قطع تركية عن تاريخها وثقافتها، وعن كل ما يربطها بالعروبة والإسلام. إلى جانب فرض اللباس

الأوروبي، وعطلة يوم الأحد بدل الجمعة! وتحريم الحجاب، وتحريم الأذان ـ للصلاة ـ باللغة العربية . . إلخ . ولم يكتف بذلك حتى جعل من (الدستور) التركي حارساً لذاته، التي لا يجوز بحكم هذا الدستور أن تنال بالطعن أو النقد. ولهذه «الانجازات» التي يعدّ الخروج عليها خروجاً على الدستور!!

ولا يقع في الوهم أن الغرب يشيد بهذا الاتجاه العلماني ويدعو المسلمين إليه، وهو يرى فيه سبيل تقدمهم ونهضتهم، أو السبيل التي تحقق للعالم الإسلامي الوحدة والاستقلال! وربما كان السبب الحقيقي لمثل هذه الإشادة أن علمانية المسلمين ـ إن صحت التسمية ـ تقليد للأوروبيين، واقتداء بهم! وغني عن البيان أن هذا التقليد والاتباع لا يرتقي بهم إلى درجة المشاركة أو المساواة[1] فإذا ذكرنا أننا كمسلمين قد رفعنا الله تعالى إلى مقام الشهادة على الناس؛ أدركنا مدى التخلف والتبعية الذي تكرّسه فينا العلمانية؛ حين تنزل بنا إلى رصيف البطالة والتسوّل لما عند الآخرين. الأمر الذي يضيّع على المسلمين طريق النهضة والابداع . . فضلاً عن الوراثة الحضارية الموعودة والمأمولة؛ قال

---

(١) أعلن هيلموت شميت، بعد أكثر من خمس وسبعين عاماً من فرض العلمانية في تركية «أن سبب رفض وزراء السوق الأوروبية المشتركة طلب العضوية الذي تقدمت به تركية، هو أن الهوية والثقافة الاسلاميتين لتركية لا يمكن مصالحتهما مع المبادىء المسيحية ـ اليهودية للدول الأوروبية».
جريدة الخليج، العدد ٣٩٦٣ تاريخ ١٠/٣/١٩٩٠ .

تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كلِّه ولو كره المشركون﴾[1] [الآية **٣٣** من سورة التوبة. والآية ٩ من سورة الصف].

العلمانية إذن هي طريق المجتمعات العربية والاسلامية إلى تكريس التخلف.. وذلك على الضد مما ذهب إليه أولئك الذين ربطوا بين العلمانية والتقدمية!

بقي أن يقال: إن نفراً من هؤلاء - إن لم يكن سوادهم أو جميعهم - حاولوا الربط بين (الدّين) و (الطائفية) فدعوا إلى العلمانية من أجل محاربة النعرة الطائفية! وقد انبنى على ذلك في نظرهم ضرورة استبعاد (الدّين) أو ضرورة عزله، بوصفه عاملاً مفرقاً في الوحدة القومية، أو عاملاً يحول بين العرب وبين التقدم والوحدة!

أ - ونقول أولاً في مناقشة هذا الادعاء: إن أصحابه سوّوا بين الدّين والطائفية، من جهة. كما سوّوا بين الإسلام والنصرانية من جهة أخرى. وتعني هذه التسوية الثانية أن نظرتهم إلى الإسلام لا تعدو كونه علاقة فردية أو صلة روحية بين العبد وربه، وأنه لا أثر له في الثقافة ونظام الحياة! أو أن أثره في ذلك يماثل طرفاً من أثر المسيحية في حياة المجتمعات الأوروبية. وهذا تصور فاسد كما

---

(١) انظر حول هذه الوراثة بحثنا: العالم المعاصر: مدخل إلى الحضارة البديل، ص ٩٠-٩٨ طبع مؤسسة الرسالة ١٩٩٠ .

هو معلوم، لأن الإسلام ليس عقيدة وعبادة فحسب، ولكنه كذلك شريعـة ومنهـج حياة، وعزلُه أو استبعاده يعني عزل (الثقافة) عن المجتمـع والحياة! الأمـر الذي ينبني عليه تقويض دعائم الوحدة القومية، أو القضاء على المقوم الحقيقي لهذه الوحدة ذاتها؛ لأن الإسلام إذا كان دين الأغلبية الساحقة من العرب، والنصرانية دين الأقلية؛ فإن «الثقـافـة العـربية الإسـلامية» هي ثقـافة المسلمين والنصارى جميعاً. وسوف ينبني على استبعاد الاسلام استبعاد هذه الثقافة أو عزلها بطبيعة الحال!

وحتى إذا أخذنا بعين الاعتبار الطرح القومي لمقومات الوحدة العربية ذاتها، والتي يخشى عليها القوم من (الدين) أو (الطائفية)! وأعني بهما: اللغة والتاريخ؛ فإن من الملاحظ أن استبعاد الإسلام سوف يضعف هذين العـاملين أو يقضي عليهمـا؛ لأنهمـا ليسـا مفصولين عن الثقافة العربية الإسلامية، أو مغايرين لها! فاللغة هي اللغة العربية بطبيعة الحال، وهي لا تعدو أن تكون أداة للإسلام ووعـاءً لثقـافتـه وحضـارتـه وتـاريخه. ودراستها تقدم للفرد معنى الحضارة الإسلامية، وتصله وصلاً وثيقاً بهذه الحضارة. وإذا ذهب مادوّن بهـذا اللسـان في ظلال الإسـلام لم يبق لنـا إلا الشعـر الجـاهلي، الـذي حفظ بدوره بفضـل القرآن والإسلام.. بل إن اللسـان العـربي ذاتـه ما كان له أن يبقى حتى الآن لولا القـرآن الكـريم، أسـاس الثقـافـة الإسلامية ومنطلقها ولسانها في الوقت نفسـه. والتـاريخ القـومي بدوره هو التـاريخ العربي الإسلامي،

بأحداثه ووقائعه، وما يذكي من شعور، ويوحّد من آلام وآمال بين العرب والمسلمين أجمعين. . كما أوضحنا ذلك في مبحث القومية.

وهكذا، فإن وحدة العرب القومية، أو الوحدة العربية تستدعي لزوم حضور الإسلام لغة وتاريخاً وحضارةً وثقافة، لأن هذه الوحدة لا يمكن لها أن تتم خارج إطاره. وهذا هو القدر الذي يشترك فيه النصارى العرب مع العرب المسلمين. . ولهذا فإن استبعاد الإسلام ـ كدين ـ ووضعه مع الدين المسيحي في كفة واحدة سوف يفرغ الشخصية العربية، مسلمة كانت أم مسيحية، من محتواها الثقافي، ويخلّ من ثم بوحدة جميع العرب.

ب ـ ثم نضيف إلى ذلك أن هذه النظرة السطحية إلى موضوع (الدين) و (الطائفية) أو هذا الطرح القومي العلماني الذي سوّى بينهما، هو السبب الحقيقي في بروز المشكلة الطائفية، لأن هذا الطرح عندما ينبني عليه كما قدمنا عزل الثقافة الاسلامية، سوف يستتبع لزوم حضور الثقافة الأوروبية في المجتمع والحياة. أو كما قلنا أكثر من مرة: حين تفرغ هذه الشخصية العربية ـ مسلمة كانت أم مسيحية ـ من محتواها الثقافي العربي الاسلامي، سوف لن تملأ بغير الثقافة الأوروبية. والمشكلة التي تواجهنا وتبرز أمامنا في هذا الحال، هي أن هذا الأمر يعزل أو يسهم في عزل المسيحيين ـ إلى حد كبير ـ عن جسم المجتمع العربي الإسلامي الذي ينتمون إليه، والذي ارتبط مصيرهم به؛ لأنه يخلق فيهم شعوراً

بالامتياز في إطار هذه الثقافة ـ الأوروبية ـ نظراً لعلاقتها بالمسيحية بوجه من الوجوه! وبخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار موقع الغرب المتقدم! وهكذا تبدأ النعرة (الطائفية) بالظهور. . أو هكذا بدأت بالفعل الطائفية الحديثة أو المعاصرة في ظل الدعوات القومية والعلمانية منذ عشرات السنين. . ثم نمت عند البعض حتى وصلت إلى حد الحديث عن الخصوصية الحضارية التي تتمتع بها الطائفة المسيحية في لبنان والبلاد العربية في مواجهة المسلمين، أو في إطار المجتمع العربي الإسلامي! علماً بأنهم في الأصل ـ أو عبر عصور التاريخ ـ جزء من هذا الإطار قبل أن تعدو عليه العلمانيّة! يقول المطران جورج خضر[1]: «الوجود المسيحي الشرقي إنما هو وجود مع المسلمين، وفي إطارهم التاريخي والحضاري» وهو في موقفه هذا من هذه المسألة، كما يقول الأستاذ الدكتور جورج طعمه: «ينطلق من أن المسيحية العربية تمثل استقلالاً فكرياً وروحياً وحضارياً عن الغرب، وقد ارتبط مصيرها بالمصير العربي العائش في مجتمع إسلامي طبعه الإسلام بطابع نهائي ومصيري»[2].

ليست المشكلة إذن في الدين والطائفية، ولكن في الأوربة والتغرب، أو في التغرب والتغريب! وهكذا يصبح من حقنا أن نربط بين العلمانية والطائفية، بدل الربط بين الدين والطائفية.

---

(١) متروبوليت جبل لبنان للروم الأرثوذكس حالياً.

(٢) مجلة العربي الكويتية، عدد نيسان «ابريل» ١٩٨٠ ص ٢٥ .

ج ـ وأخيراً يمكننا تأكيد ما قدمناه، بملاحظة أن الممارسات الطائفية أو التعصب الطائفي كان أحد ظواهر عصر الانحطاط أو ثقافة عصر الركود. وأن هذا التعصب لم يعهد في عصر النهضة في الإسلام ولا في سائر عهود الازدهار الإسلامي.. فالمشكلة إذن أو في جميع الأحوال ليست في الدين، ولكن في الجهل بالدين أو بفقه التدين.

ويمكننا تعليل هذه الظاهرة على نحو ـ ربما ـ أشمل وأعمق، من خلال ملاحظة التداول أو التعاقب الذي عُرف في تاريخنا بين (الولاء) و(الانتماء)، وأعني به الولاء للفكرة، والانتماء للقبيلة، أو العكس.. ففي بداية العصر الإسلامي، ومع نزول القرآن الكريم في العرب كان الانتماء والولاء جميعاً للقبيلة، أو كانا شيئاً واحداً، حتى إذا خرج الإسلام بالعرب من جاهليتهم، وسادت فيهم قيمه الثقافية في الحرية والعدل والمساواة.. أو حين تمكّن الإسلام من نفوسهم، انتقل (الولاء) للإسلام، وانفصل عن (الانتماء) الذي بقي في إطار القبيلة. أو بعبارة أخرى: أصبحت الصلة بالقبيلة مجرد «انتماء» يقوم على قرابة الدم ورابطة النسب. ولم يكن الشعور بهذا الانتماء، أو لم يكن في التعويل عليه في عصور الازدهار الإسلامي خطأ أو قصور.. لأن دوره كان إيجابياً في تكريس «الولاء» للإسلام زمن السلم ـ في روابط الاقتصاد وأوضاع الاجتماع ـ والدفاع عنه وحمايته زمن الحرب.

حتى إذا دخل العرب المسلمون ـ وسائر المجتمعات

الإسـلامية في عصـر الـركود والانحطاط ـ وضعفت فيهم روابط الثقـافـة الإسـلامية الفـاعلة، وقيم الإسلام الحضارية؛ انقلبت الأوضـــاع رأســاً على عقب! فصـــار الـولاء للقبيلة، والانتمـاء للإسلام . . أو أصبحت الصلة بالإسلام مجرد انتماء . . متحجّر تارة، ومتعصّب تارة، وليس له أثر سلوكي أو معنى حقيقي تارة أخرى!

وكـان هذا مبـدأ ظهور الطائفية السياسية والدينية في تاريخ المجتمعـات الإسـلامية، بمـا حملتـه من فرقـة وتناحر، وتجزؤ وانقسام، من جهة. وبـما عُرفت به من تعصب ديني ومذهبي، من جهة أخرى.

ولهـذا فإن في وسعنـا أن نعـد الـطائفية الدينية المعاصرة، والـطائفية المـذهبية كذلـك، استصحـابـاً لعصر الركود، أو بعثاً لعصـور التخلف والانحطاط! وليس استصحاباً لعصور الازدهار الإسلامي، أو استمراراً لعصر الأمة الواحدة التي أرسى قواعدها الإسلام.

والعجيب، بعـد ذلـك، أن يظن العلمانيون أنهم يحاربون الطائفية بإقصاء الدين!

محتويات الكتاب